مراجعات

ملحق شهري تصدره وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بالتعاون مع «الرؤية»

ذي القعدة 1441 هـ - يوليو 2020

الصفحة الأولى...

هلال الحجري

من الشعراء الذين فتنوا بالشرق والعرب بخاصة، الشاعر الأمريكي بيَرْدْ تيلَرْ Bayard Taylor (١٨٢٥-١٨٧٨). وهو شاعر ودبلوماسي وصحفي ورحالة ومترجم أمريكي، ارتحل على نطاق واسع في العالم، وزار العديد من مناطق الشرق، منها مصر وفلسطين، والهند، والصين، واليابان. عُرف في مجال الأدب بترجمتة الرائعة لمسرحية فاوست للشاعر الألماني الشهير جوته. كتبت عنه الموسوعة الأمريكية: «تشكل قصائده عن الشرق وأغانيه في بنسلفانيا أفضل أعماله». وحسب الموسوعة البريطانية، فإن «أغنية الحب البدوية من أجمل قصائده».

يتجلى اهتمام بيَرْدْ تيلَرْ بالعرب والمسلمين في ديوانه «قصائد الشّرق» الذي نشره سنة ١٨٥٤، وكان متأثرا فيه برحلاته الشرقية وقراءته لكتاب «ألف ليلة وليلة». من بين قصائد الديوان قصيدة بعنوان «أغنية بدوية» كتبها تيلَرْ حين كان في موزمبيق يوم ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٥٣، كما أكد ذلك بنفسه في رسائله. أكسبت هذه القصيدة تيلَرْ شهرة واسعة وكانت حاضرة في معظم الأنطولوجيات الشعرية التي تتحدث عن الشرق، وقد غنتها عام ١٩٢٦ مجموعة (Glee Clubs) في أميريكا.

(أغنية بدوية)

أتيتُ إليكَ من أقصى البَوَادي
لهيبُ الشوقَ يَعرفُه جَوادي
تُباريه الرياحُ فيعتليها
يكاد يطير من لَهفَ الطِّرادَ
وهانَنَذا ببابَكَ مُستكينٌ
ونصفُ الليلَ يَسمعني أُنادي
أَحَبَّكَ، لا سَواكَ ثوى بقلبي
وحُبّي ليس تُطفَئُه العَوادي
ويبقى ما أضاء الكونَ شمسٌ
إلى يوم القيامةَ والمَعَادَ!
أطَلّي مَنْ نوافذكَ انْظريني
ألستُ الصَّبَّ مَفطورَ الفؤادَ؟
وإني ناحَلٌ في الرملَ مُلقى
وأنتَ هناك سَيّدةُ العَنادَ
دعي الأنسامَ تُهديكَ اشتياقي
وتحملُ آهتي ولَظى وَدَادي
لعلَّ القلبَ منكَ يلينُ يوما
لَحُبٍّ ليس تُطفَئُه العَوَادي
ويبقى ما أضاءَ الكونَ شمسٌ
إلى يومَ القيامةَ والمَعَادَ!
خُطايَ تُساقُ نحوكَ كلَّ ليلٍ
بقلبٍ مُذنَفٍ واهي الجَلادَ
لعلّ خَباكَ أسمعُ منه حرْفًا
أذوقُ بهَمْسَه طَعْمَ الرُّقادَ
ألا بابٌ بقلبكَ يحتويني
فدارُكَ دونها خَرْطُ القَتَادَ
على شفتيكَ قُبْلاتي ستتلو
هُيامًا ليس تُطفَئُه العَوَادي
ويبقى ما أضاءَ الكونَ شمسٌ
إلى يومَ القيامةَ والمَعَادَ!

hilalalhajri@hotmail.com

• العلمانية.. تاريخ فرادة فرنسية
• فليب راينو

• الدين والعَلْمَنة في المجتمعات الغربية
• جوفاني كوتشي

• 2020.. الوباء والنهوض
• جولييو سابيللي

• جائحة الديمقراطية..
• دانييل إنيراريتي

• الوحشية
• أشيل ميبمي

• الاقتصاد الإسلامي..
• إتش. عبد الرقيب

• سلطنة عمان، أساطير وحكايات ووقائع تاريخية
• يغور سينتشينكو

• الصين مختلفة بالتأكيد..
• شيه رونغ بين

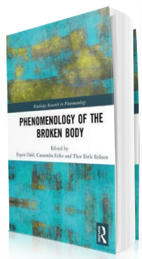

• فينومينولوجيا الجسد الكسير
• تأليف جماعي

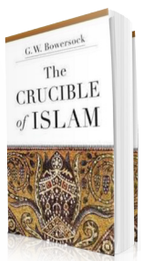

• بوتقة الإسلام
• جلين وارن باوّرسوك

إصدارات عالمية جديدة

صفحة 22 و 23

العلمانية.. تاريخ فرادة فرنسية
فليب راينو

مُحمَّد الشيخ *

عادةً ما تنظر الشعوب الأخرى إلى الطراز العلماني الفرنسي نظرة استغراب. إذ لطالما نظر المحافظون الأمريكيون إلى «علمانية فرنسا» على أنه «إلحاد دولة»، بيما لمح فيها الليبراليون الأمريكيون «طراز إدماج سلطوي وقسري» غير«ليبرالي» ولا «حُرَّاني». وقد أدان فيها الأوائل ما رأوا من «عقيدة معادية للدين» سليلة الأنوار الفرنسية والثورة، تعوق فرنسا عن أن تكون ديمقراطية ليبرالية حقة، ووجد فيها الثواني أدلوجة سلطوية فرضتها فرنسا العتيقة، وهي أدلوجة معادية للأجانب وجامدة على رفضها لفضائل «التعددية الثقافية»... وحده النموذج التركي الكمالي عادة ما يُقَدَّمُ على أنه أنموذج قُدَّ على محك الطراز الفرنسي، لا سيما من جهة نزعه إلى ممارسة الدولة الرقابة على الدين، وقد ترافق ذلك مع احتكار دين واحد (الإسلام في حالة تركيا) للحياة الدينية.

يحاول الفيلسوف والمفكر السياسي الفرنسي فليب راينو، في هذا الكتاب الجديد (٢٠١٩)، النظر في ثنايا هذه الصورة المرسومة لطراز العلمانية بفرنسا، والتمعن في تضاعيفها، مراوحا بين السفر إلى ماضي فرنسا والحضر في واقع فرنسا اليوم، واقفا عند أهم سمات ميراث العلمانية الفرنسية وعلى أوجه ائتلافها واختلافها عن نزعات الدنونة الأخرى، باسطا أمامنا «مروية» العلمانية الفرنسية في «فرادتها» وفي «كونيتها» معا، وفيما تأتلف به مع باقي اللائكيات وفيما تختلف به عنها.

العلمانية الفرنسية

أشكال من سوء فهم ومراجعات ومفارقات:

يُنبه المؤلف، بداية، إلى أن لفظ «اللائكية» الفرنسي نفسه يتأبى عن كل ترجمة دقيقة إلى اللغات الأخرى. ويبادر إلى مراجعة العديد من الأفكار الشائعة حول هذه اللائكية. ومنها:

أولا؛ عادة ما تختزل اللائكية الفرنسية في ملمح فصل الدين عن الدولة. والذي عند المؤلف: كلا؛ ما كانت العلمانية الفرنسية ثمرة للفصل بين الكنيسة والدولة، وإنما الأصل الذي تنشأت عنه هو مطلب التسامح الديني في سياق الصراع بين الكاثوليكية وحركة الإصلاح البروتستانتية... وفضلا عن هذا ينبه. ويا للمفارقة. أن قانون ١٩٠٥ الذي يعد بمثابة إنجيل العلمانية الفرنسية لا ترد فيه كلمة «العلمانية».

ثانيا؛ عادة ما أسيء فهم الطراز الفرنسي: إذ تم فهمه على أنه اجتثاث للدين من الضمائر. وما كان هو بذلك: لئن كانت الدولة علمانية، فإن المجتمع متدين. إذ لم يتعلق الأمر بتحرير المجتمع من سطوة الدين، بقدر ما تعلق، بالأولى، بمنع جزء منه متدين من استتباع بقية المجتمع.

ولا يجادل المؤلف في أن «العلمانية» مكسب من مكاسب الحداثة. ذلك أن الديمقراطية الحديثة ما كان لها أن تقوم لها قائمة لو ما سعت هي إلى ضرب من تحييد الدين. إذ أن السلطة السياسية الديمقراطية محتاجة إلى تأكيد استقلالها أمام السلطات الدينية، حتى تترك للأفراد مجال للعيش المشترك والسعي إلى سعادتهم بمعزل عن الطريقة التي تطرح بها الأديان مسألة النجاة. لكن معظم الديمقراطيات المعاصرة تحل المسألة الدينية بطريقة غير الطريقة الفرنسي: ملكة إنجلترا هي رئيسة الكنيسة الإنجليكانية، والكنائس الألمانية تمول بمال دافعي الضرائب، بحيث يكون على كل مساهم أن يعلن عن صنف الكنيسة التي يود أن يخصها بمساهمته، وتفتتح الحفلات الرسمية الأمريكية بصلوات عمومية، وتسود هناك العلامات الدالة على الانتماء إلى ديانة معينة، دون أن يعني كل ذلك هذه الأشكال من استمزاج «الدينونة» بالدنيوية أن الديمقراطية قد باتت في خطر... فلماذا تتفرد اللائكية الفرنسية؟

مروية العلمانية الفرنسية

تعود أصول «العلمانية» الفرنسية إلى فترة حروب الدين، حيث شرع سلطان الملك في التحرر من سلطان الكنيسة بظهور جماعة «رجال السياسة»، وذلك زمن المواجهة العنيفة بين «الكاثوليكيين» و«البروتستانتيين»؛ فكان أن اعتزل أهل السياسة الفريقين معا ودعواهم في ما اعتزلوا فيه الفريقين: بمكنة المرء أن يكون فرنسيا صالحا من غير أن يكون بالضرورة كاثوليكيا. وهو ما شهد به «مرسوم نانت» الذي نص على أنه يمكن للمرء أن يكون من رعايا دولة فرنسا الصالحين دون أن يكون بالضرورة كاثوليكيا؛ فكان أن أدخل لأول مرة فكرة دولة يحكمها العقل. لا الشرع الديني ولا الهوى الطائفي. تكون حامية للحرة الدينية. على أن انتصار هذا الفريق كان انتصارا مؤقتا؛ إذ كان النظام الملكي ما يفتأ يؤكد على الوحدة الدينية للمملكة. ثم سرعان ما تبين أن الملكية المطلقة باتت، في «القرن العظيم» (ق. ١٧ م)، تستمد شرعيتها من عقلانيتها في التدبير والتسيير (العقلانية الإدارية) ومن سلطانها التمديني التحضيري، وذلك أكثر مما بقيت هي تستمد هذه المشروعية من «الأسس الدينية» التي كانت قد نهضت عليها. ومع مجيء الثورة، كفت فرنسا عن أن تظل مملكة كاثوليكية، لكي تنهج نهج الدولة اللائكية وقد تخلصت من كل تصور لاهوتي.

وكان أن وضع الاتفاق بين فرنسا النابليونية والبابوية النهاية للأزمة الثورية، مدشنا ما يشبه عهد الردة، وذلك بإعادة إدماج الكنيسة الكاثوليكية في الأمة؛ لكن هذا الاتفاق لم يدمر أسس العلمانية. لقد حدث اتفاق بين الأديان والجمهورية بحيث تتولى الدولة تمويل الشعائر التي تعترف بها الجمهورية، ثم ما لبثت سنوات (١٨١٥-١٨٣٠) أن شكلت إعادة تنصيب للنظام القديم، حيث عادت الكاثوليكية من جديد لكي تصير «ديانة الدولة»، وليس فقط «ديانة غالبية الشعب الفرنسي»؛ وهو الأمر الذي استغله الكاثوليكيون لمحاولة منع التجديف وحظر تمويل الشعائر الدينية الأخرى.

هذا.. وقد اتصل الصراع بين فرنسا الكاثوليكية وفرنسا الجمهورية طيلة القرن التاسع عشر، قبل أن تنخرط الجمهورية الثالثة (١٨٧٠-١٩٤٠)، المعادية للكنسية وللملكية سواء بسواء، في «علمانية مناضلة» انتهت عام ١٩٠٥ إلى سن قانون زكى انفصال الكنيسة والدولة، مع حفظ السلطة الروحية وحسب للكنيسة وعدم التدخل في شؤونها، مقابل سن أساس مبدأ حرية الاعتقاد أو عدم الاعتقاد. وبذلك تجاوزت العلمانية الفرنسية مجرد إطار الحرية الدينية البسيط: هو ذا ما شكل فرادتها على مر القرون، وهي فرادة ما كفت عن إثارة إشكالات:

لم يكف هذا الطراز من «العلمانية» عن إثارة الجدل بين أجيال من المفكرين الفرنسيين: فعند بداية الجمهورية الثالثة تجابه ورثة الثورة الفرنسية وأهل الحنين إلى الكاثوليكية، وهو تجابه انتهى بانتصار «العلمانيين» وتهميش «الحنينيين»... وبعد ذلك بقرن نشبت معركة جديدة بين اليمين الأشد تصلبا واليسار الأكثر جذرية. وإذ أجمعا معا على «العلمانية»، فإن «اليمين»، بمروحية الشاسعة، بات يروم استعمال «العلمانية» ضد النمو المتزايد للإسلام في المجتمع الفرنسي، بينما بات اليسار الفرنسي، المناصر للأقليات، يوظف «العلمانية» ضد قيم اليمين والكاثوليكية المحافظة. وثمة إلى جانبهما يسار أقلي ذو

نزعة «علمانية مناضلة» أمسى يستعمل «العلمانية» من أجل محاربة «الأصولية الإسلامية» من غير مهاجة «الإسلام» نفسه، ويدعو إلى اليقظة ضد المحافظين الدينيين. فضلا عن وجود فريق يدعو إلى «علمانية منفتحة» ذات استيحاء ليبرالي ترى أن قانون ١٩٠٥ أنشأ «دولة علمانية» لكنه لم ينشئ «مجتمعا علمانيا»؛ ولذلك ينبغي لهذه «العلمانية» أن تبقى منفتحة أمام «الواقعة الدينية».

الدعوى الجوهرية حول العلمانية الفرنسية:

متفردة: نعم، استثنائية: لا

يرى المؤلف أن الخارج نظر دوما إلى فرنسا وعلمانيتها وفق هذه النظرة: فرنسا الاستثناء. لكن ما يجمع علمانية فرنسا بغيرها من ألوان العلمانية: أن في العديد من الأنظمة الديمقراطية ما بقي السلطان الزمني يخضع إلى السلطان الديني، وأن سلطان الدين آيل إلى أفول، وأن الدين سائر إلى أن يصير مسألة فردية محضة. ولهذا يفضل المؤلف الحديث عن «الفرادة» بدل الحديث عن «الإستثناء». الأصل في علمانية فرنسا كما في غيرها من ألوان العلمانية إنما هي حركة «دنونة» جعلت الناس يقبلون على «الدنيا» بدل الإقبال على «الدين»؛ ومن ثمة ضادت «الدنونة» «الدينونة». وما ميز النسخة الفرنسية من «الدنونة» أنها ورثت ما شهدته من مجابهة عنيفة بين «الأنوريين» و«الكاثوليكيين»، وبين «المؤمنين» و«غير المؤمنين».

لهذا؛ يخلص المؤلف إلى أن العلمانية الفرنسية ثمرة تاريخ متفرد، لكن يمكن الادعاء، مع ذلك، بأن لها بعدا يتجاوز إطار «الاستثناء الفرنسي» المحدود. فقد نشأت عن أمة «ذات إرثين»: إرث دين كاثوليكي وإرث حكم إطلاقي قليل القبول بالتعددية الدينية التي هي منطلق تاريخ الديمقراطيات البروتستانتية. ولذلك اتخذ الصراع في فرنسا بين الإرث الدينوني والمنطق الدنيوي، الذي يسم الدولة الحديثة، طابعا أعنف مما اتخذه في بريطانيا العظمى أو في الولايات المتحدة الأمريكية أو في هولندا، لكن عنفه متأت من أن الرهانات فيه قد فُهمت على نحو أفضل مما فُهمت لدى أغلب الأمم الأوربية.

ترى، ما وجه فرادة هذه العلمانية؟

«اللائكية» على الطريقة الفرنسية هي إحدى صيغ سيرورة «الدنونة»، هي الشكل الذي اتخذته بفرنسا حركة «الدنونة» التي اجتاحت بالتدريج العالم الغربي برمته. ومن ثمة اتسمت بسمات تخص ولا تعم. لقد حققت فرنسا، بعد بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الأمريكية، إحدى أكبر الثورات السياسية التي قادت إلى ميلاد الديمقراطية الحديثة. لكن فرنسا كانت، بالأساس، ملكية مطلقة وكاثوليكية متدينة، بينما كانت إنجلترا وأمريكا تعيشان في ظل مؤسسات ليبرالية نسبيا وتحت الديانة البروتستانتية. ولهذا؛ فرضت في فرنسا الحرية السياسية ضد الدين وليس معه، إثر مواجهة بين الأنوار والكنيسة الكاثوليكية، بينما قسم كبير من البروتستانتية الإنجليزية والأمريكية أعد توافقات بين المسيحية والروح الحديثة. لقد أقامت فرنسا

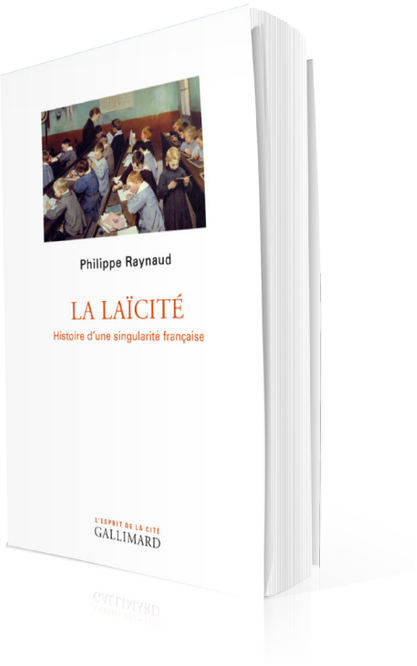

«العلمانية» ضد نظام «الكاثوليكية» السابق، لكنها بقيت متأثرة بماضيها الكاثوليكي. ولم يحدث انتصار الدولة العلمانية إلا بعد صراع طويل ومرير، يقر المؤلف أن بعض مراحله ما كانت «ليبرالية» كما ينبغي أن يكون موقف كل ليبرالية حقة نحو الدين. وإذن، يرى المؤلف أنه، على عكس ما يعتقده من يسميهم «أصدقاؤنا الأمريكيون»، فإن العلمانية الفرنسية لا تناقض مبادئ الديمقراطية الحديثة، بل هي إحدى «أعظم نسخه الممكنة».

تتسم العلمانية الفرنسية بخمس سمات؛ هي على التوالي: ١- الاعتراف بحرية المؤمنين وغير المؤمنين على حد السواء. ٢- حماية المجتمع من الدعوى الدينية النضالية النشطة. ٣- الفصل بين مختلف أنظمة الحياة في المجتمع. ٤- التحفظ على التوظيف السياسي للمرجعيات الدينية. ٥- التحفظ في إعلان القناعات الدينية على العموم. هو ذا ما يجعل من هذه العلمانية علمانية «فريدة».

وفي الأخير، يتساءل المؤلف، وقد لاحظ أن شبح الثورة الفرنسية ظل مخيما على علمانية فرنسا، هل يمكن لفرنسا أن تحافظ على ما شكل قوتها ما دام العالم الذي تشكلت فيه شهد على تغيرات يبدو أنها أثرت في الأسس التي قامت عليها؟ وجواب المؤلف أن علمانية فرنسا، بوسمها استمرارا للثورة الفرنسية، انتصرت في حقبة كان فيها الشكل القومي هو الإطار الطبيعي للنظام الجمهوري، وهو الشيء الذي كان يسمح لهذا النظام بسحقجزء من خصومه القدامى. لقد استندت هذه النسخة من العلمانية إلى واقعة أن غالبية الفرنسيين تتقاسم ما يكفي من قواعد العيش المشترك؛ بحيث أن الانقسام بين «فرنسا وفرنسا»؛ أي بين حساسيتين ثقافيتين وقيميتين، كان مقبولا بالجملة. لكن الجديد اليوم هو «واقعة التعدد الديني». ففي فرنسا اليوم حيث الثورة الفرنسية انتهت، وحيث كان شبح الثورة لا يزال مخيما وحيث كان النقاش يتم في إطار «الأمة»، ما عادت «الأمة» هي الإطار الوحيد للنقاش السياسي، والتوافق المعنوي والروحي الذي قام عليه العالم الكاثوليكي قد غار، وما عادت الانتقادات الموجهة إلى العلمانية تنبع من الكنيسة الكاثوليكية، وإنما من ديانة حديثة الظهور هي الإسلام الذي يتأبى عن الإدماج ويتمنع عن الإلحاق، ولا شيء يضمن أن الجمهورية الفرنسية قادرة على استيعاب هذا الطارئ وفهمه؛ إذ ما عاد بالإمكان استنساخ قانون ١٩٠٥ في التعامل مع الإسلام؛ فالظروف ما عادت هي هي. لا وجود لكنيسة مسلمة، وما شهد الإسلام قط عملية دنونة، وذلك على خلاف ما شهدت عليه الكاثوليكية؛ مما حملها على أن تتغير شيئا فشيئا. وإن اندماج الإسلام في الجمهورية لن يكون من تلقاء ذاته؛ إذ لا بد للمسلمين من الاشتغال على إصلاح دينهم حتى ينسجم أكثر مع قيم الجمهورية.

وها قد انتهت العلمانية إلى أن تبدو وكأنها مجرد حنين إلى «عالم فقدناه»، وأمست محل تجاذب موقفين متعارضين الباعث عليهما معا ذكرى الحنين: يدعو «المُحْدَثون» إلى التخلي عن طرازهم العتيق، والقبول بالإطار «الليبرالي» و«الثقافي التعددي» الذي فرضه أفول الأخلاق التقليدية والعولمة وفتح الحدود. تلقاء ذلك، يسعى «الحنينيون» بالضد إلى الأوبة إلى السيادة القومية التامة وإلى استعادة ما كان قد سمح من قبل بإحداث توليفة بين فرنسا سليلة الملكية الكاثوليكية والجمهورية اللائكية وليدة الثورة.

لكنَّ المؤلف يرى -في نهاية المطاف- أن هذه الإشكالات التي تواجهها اللائكية الفرنسية ما كانت هي بالفرنسية البحتة، وإنما باتت تصيب هي ما يسميه «مجمل العالم الديمقراطي»، حيث الأشكال العتيقة لحل النزاعات الدينية وتحديد القواعد المشتركة للأخلاق وإدماج ساكنة ذات أصول أجنبية أمست تواجه في كل مكان نفس المعضلات. وهو ما تشهد عليه، مثلا، أحوال أمريكا وهولندة وبريطانيا. ومن تم ما كانت فرنسا «استثناء» في عالم يسير نحو «التنميط»، وإنما هي «استفراد» بملامح حاضرة في كل مكان من «العالم الديمقراطي»: الاعتراف بحرية المؤمنين وغير المؤمنين، حماية المجتمع من هجمة أهل الدعاوى الدينية النشطين، التمييز بين أنظمة الحياة، التحفظ على الاستعمال السياسي للمرجعيات الدينية، الرغبة في عدم إظهار القناعات الدينية علنا. والحال أن هذه الملامح تدخل ضمن ما كان سماه مونتسكيو باسم «الروح العامة» للأمة الفرنسية، وهي مكون من المكونات الكبرى لرابطة الأمم التي تشكلها أوربا.

- الكتاب: «العلمانية.. تاريخ فرادة فرنسية».
- المؤلف: فليب راينو.
- الناشر: جاليمار، فرنسا، 2019م.

* أكاديمي مغربي

الدين والعَلْمَنة في المجتمعات الغربية
جوفاني كوتشي

عزالدين عناية *

كتاب «الدين والعَلْمَنة في المجتمعات الغربية» هو من الكتب القيّمة التي صدرت في إيطاليا في الفترة الأخيرة، والتي تولي أوضاع الدين متابَعة ومعايَنة من الداخل، سيما وأنّ مؤلّف الكتاب، جوفاني كوتشي، رجل دين وأستاذ جامعيّ. يحاول تقديمَ صورة عامّة عن أوضاع الدين في الغرب، ليستخلص من خلالها أبرز ملامح التحوّلات التي تعيشها المجتمعات المسيحية في الزمن الحداثي. ويعتمد صاحب الكتاب جملة من المقارَبات والأدوات المساعدة على تتبّع الوقائع الدينية، كعلم الإحصاء وعلم الاجتماع والدراسات الديمغرافية، بغرض إنجاز حوصلة شاملة لِما يحاول رصده من تحوّلات.

واعتمادًا على تقرير عامّ حول الأوضاع الديمغرافية للمسيحيين، يُبرز المؤلّف، منذ مطلع كتابه، أنّ أعدادَ المسيحيين على مستوى عالميّ في تزايد مطّرد، ولكنّ ذلك التزايد افتقدته أوروبا منذ سنوات، مما جعل عديد المراقبين يدقّون نواقيس الإنذار ويحذّرون من مغبّة تبدّل هوية القارة الدينية في غضون العقود القادمة. فقد أدلى كونراد هاكيت أستاذ الديمغرافيا ومدير «مركز بيو للأبحاث» في أمريكا، المتخصّص في مستقبل الأديان في العالم، بحوار لصحيفة «وول ستريت جورنال» جاء فيه: إنّ المسيحية تشهد حالة تراجع في معظم دول أوروبا؛ من بينها: إنجلترا وألمانيا وإيطاليا. وقد فاق عدد الوفيات بين المسيحيين عدد الولادات منذ العام ٢٠١٠ وإلى غاية العام ٢٠١٥ بستّة ملايين. وفي ألمانيا وحدها بلغ عدد الوفيات ١،٤ وهو ما يتخطّى عدد الولادات، البالغ مليون نفر. وفي ضوء الأعداد الحالية يذهب هاكيت إلى أنّ رُبعَ الأوروبيين سوف يفتقرون إلى انتماء ديني على مشارف العام ٢٠٥٠.

المشكلة أنّ انحسارَ المسيحية لا ينحصر بدولة دون أخرى، وإنّما يشيع في معظم الدول الأوروبية. وبحسب الأعداد التي أعلن عنها «المؤتمر الأسقفي الألماني»، أعلى الهيئات الكاثوليكية، خلال العام ٢٠١٥-٢٠١٦، فقد توارى من سجلات الكنائس الكاثوليكية ١٦٢,٠٩٣ من الأتباع وأغلقت ٥٣٧ خورنية أبوابها. واستقرّ مستوى التراجع، على مدى عشرين سنة، في حدود ١٥ بالمئة (بالفعل مسّ أربعة ملايين من الأتباع)، وهو ما قاد إلى اندثار ٢٥ بالمئة من الكنائس الكبرى (خورنيات) من (١٣,٣٢٩ إلى ١٠,٢٨٠). ففي فرنسا بلغ عددُ الكهنة المكرَّسين خلال العام ٢٠١٣ قرابة ٩,٠٠٠، وهو ما يعني أربع مرات أقلّ، مقارنة بأعداد نهاية الحرب العالمية الثانية. تُوضّح أعداد خورنية مدينة بورج الأمر: يرتاد ثلاثمئة شخص على ٢٧ ألفا القدّاسَ مرةً في الأسبوع.

وضمن السياق نفسه، يرصدُ الكتاب ظاهرةَ الكنائس التي توقّفت عن النشاط وأقفلت أبوابها، ويُحصي التي غيّرت أنشطتها من خلال التفويت فيها وبيعها. وعلى ما يذكر مؤلّف الكتاب فقد توقّفت ٥١٥ كنيسة في ألمانيا، ويُرجَّح إقفال ١٥ ألفا أخرى، أي ثلاثين بالمئة، في السنوات المقبلة. وعلى ما يُقدِّر «المؤتمر الأسقفي الهولندي»، أعلى الهيئات الكاثوليكية في البلاد، أنّ ١٦٠٠ كنيسة ستغلقُ أبوابها خلال السنوات العشر القادمة، وسيطال الغلق ٧٠٠ كنيسة بروتستانتية خلال السنوات الأربع القادمة. وبشأن الأوضاع في فرنسا فقد تمّ هدْمُ عشرين كنيسة قديمة منذ العام ٢٠٠٠، وسوف تلقى ٢٥٠ كنيسة المصير نفسه خلال السنوات القريبة، وأنّ ثلاثةَ آلاف من المفترَض أن تتوقّف. وفي العاصمة البلجيكية بروكسيل يُرجَّح أن تغلق ٣٠ بالمئة من الكنائس أبوابها بسبب قلّة الأتباع. ولعلّ أبرز الكنائس التي لقيت هذا المصير، في الوقت الحالي، كنيسة «بينك سانتيسيمو ساكرامنتو» الواقعة في قلب المدينة العتيقة، فقد بيعت باليورو الرمزي.

شملت الظاهرة العالم الأنغلوفوني أيضا، ففي أنجلترا تَعرض الصحفُ إعلانات لبيع كنائس وأديرة لغرض الاستعمال الخاص، وتتراوح الأسعار بين خمسين ألفًا وخمسمئة ألف من الجنيهات الأسترلينية. وفي إيطاليا ينشر موقع: (www.immobilare.it) عروضًا لبيْع محلّات عبادة متوقّفة عن النشاط باتت مقفرة. ويُفْتَرض عند التفريط في محلّات العبادة أن تُحوَّل إلى مكتبات أو متاحف أو مكاتب بريد، غير أنّ الغالبية منها قد تحوّلت إلى محلّات سوبرماركت أو متاجر لبيع الملابس. فـ«كنيسة القديس يوسف دي آمهيم» في هولاندا قد تحوّلت إلى سكايت بارك، يرتاده شبّان يتدرّبون على موسيقى الراب. وفي بريستول في أنجلترا، تحوّلت «كنيسة القديس بولس» إلى مدرسة للتدرّب على ألعاب السيرك، وقد أعرب مقتنوها عن ارتياحهم لعلوّ سقف المحلّ الملائم للتدريبات.

لا تمسّ ظاهرة التفريط في الكنائس وتحويلها إلى محلّات لأنشطة أخرى شمال أوروبا فقط، بل تمتدُّ إلى جنوب القارة أيضا. ففي إيطاليا يُحصي موقع «ويكيبيديا» تحت عنوان كنائس «منزوعة القداسة» ٨٠٠ كنيسة، تحوّلت إلى فضاءات دنيوية، كشأن «كنيسة مادونا ديلا نيفي» في مدينة كومو، التي غدت مرآبا للسيارات؛ و«كنيسة سانتا لوشيا» في مدينة ماتيرا، التي تحوّلت إلى صالة للعب البليار. فهذه الأوضاع التي باتت تواجهها الكنائس، قد حذّرت منها الأوساط الأكاديمية، لمّا عُقد ملتقى علميّ في الجامعة الغريغورية بروما برعاية «المجلس البابوي للثقافة» بتاريخ ٢٩- ٣٠ نوفمبر ٢٠١٨ تحت عنوان «لم يبقَ بيتٌ للربّ هنا»، عالجَ قضية توقّف محلّات العبادة عن أداء مهامّها وإشكالية الإفلاس التي تتهدّد الكثير منها.

نايل ماك غريغور الذي شغل خطّة مدير المتحف البريطاني في لندن، على مدى الفترة المتراوحة بين ٢٠٠٢ و ٢٠١٥، أبدى انشغالًا أثناء تقديم معرض «العيش في أجواء الألوهية»، حوْل أوضاع تراجع الأنشطة الدينية في بريطانيا قائلا: «في غياب الدين نغدو مجتمعًا بدون سرديّة جماعية، وهو وضعٌ مؤسفٌ انطلق منذ ستينيات القرن الماضي». لكن هناك من يُعارض هذا التحليل ويعتبرُ المجتمعات الغربية تشهد تبدُّلًا في الدين وليس تراجعًا. ولو نظرنا إلى عدد الحجيج الذين يتوافدون على المزارات الدينية في الغرب، فهو عدد مهمّ يبلغ ٦٦ مليون زائر يتردّدون على ٦١٣٠ مزارا لقدّيسين وقديسات. وفي الظرف الراهن تعيش مجموعة من البلدان فورةً إنجيلية، حيث يبلغ عدد البنتكوستاليين في العالم ٦٠٠ مليون، يتوزعون بين أمريكا اللاتينية وإفريقيا وبلدان شمال العالم. علّق عالم الاجتماع الإنجليزي دافيد مارتان على هذا التمدّد الجديد قائلا: «الثورة التي كان ينبغي ألّا تقع!». نشير إلى أنّ البنتكوستالية هي تفرُّعٌ بروتستانتيّ بملامح إفريقية، ظهرت في منتصف القرن الفائت في الولايات المتحدة، وهي عادةً ما تُترجَم إلى العربية بـ«الخمسينية». ويتمحور

الخلاف بين البروتستانتيّة التاريخيّة والبنتكوستاليّة في كون العلاقة بين الربّ والمؤمن، تتلخّصُ في التأويل المباشر للنصّ المقدّس مع الأولى؛ في حين يطغى هاجسُ ربط صلة مباشرة للمرء مع الألوهية، بناءً على تجربة عاطفيّة قوامها الإيمان بتنزّل الرّوح القدس مع الثانية.

ولو تمعنّا الأوضاع الدينية التي تعيشها بعض البلدان الأوروبية نلاحظ تباينًا، ففي بحث منجَز من قبل «مؤسسة غالوب وورلد بول» تركّز على سويسرا، تبيّن أنّها من أقلّ بلدان أوروبا الغربية تديّنا وفق النمط المألوف، حيث أبدى ٢٠ بالمئة من المستجوَبين إيمانهم بالتناسخ، وأعرب ٢٠ بالمئة عن اعتقادهم في التمائم والتعاويذ للتوقّي من الشرور وسوء الطالع، كما بيّن البحث أنّ ١٠ بالمئة من المستجوَبين يرتادون النوادي والحلقات الروحية ويمارسون طقوس «النيو آيج» (العصر الجديد)، وأنّ ٧٨ بالمئة يؤدُّون جنائز دينية ويفضّل ٦٢ بالمئة الزواج وفق الشعائر الدينية في الكنيسة.

وأما في إيطاليا، فبحسب دراسة أجراها الباحث ألبيرتو ميللوني، سنة ٢٠١٤، تناولت أوضاع الدين تبيّنَ من خلالها أنّ الإيطاليين وإن صرّحت نسبة منهم تعادل ٨٠ بالمئة أنها تراعي الكاثوليكية، فإنّ نسبة مهمّة تؤمن بتناسخ الأرواح، وهي تتراوح بين ٣٢ و ٣٥ بالمئة. كما أبرزت الدراسة أنّ ٧٠ بالمئة فقط بحوزتهم نسخة من الكتاب المقدّس في منازلهم. وتبيّنَ من خلال الدراسة أيضا أنّ من يصرّحون بعدم الانتماء للكاثوليكية، ولم يتلقّوا تربية دينية، هم أكثر دراية بمضامين الكتاب المقدّس وأكثر اطّلاعا على فحواه. بيّنت دراسة ميللوني كذلك أنّ ٢٦،٤ بالمئة من المستجوَبين قد صرّحوا بأنّ الكتاب المقدّس قد كتبه موسى و ٢٠،٤ بالمئة هو من تدوين المسيح، وأنّ ٢٧،١ بالمئة اختلط عليهم مدلول العهد القديم بالعهد الجديد. كما كشفت الدراسة أنّ نسبة ١٤،٢ بالمئة ترى أنّ قصّة الخروج الواردة في الكتاب المقدّس تتعلّق بقصة خروج يوسف النجار ومريم إلى بيت لحم، أو كذلك برحلة الرسول بولس إلى روما. وأوضحت الدراسة أنّ نسبة ٣١ بالمئة لا يبدو لديها المسيح قد عاش في فترة تختلف عن الفترة التي عاش فيها إبراهيم وموسى، رغم فارق ميئات السنين الفاصل بين الشخصيات الثلاث. كما رأى بعض المستجوَبين أنّ المسيحَ قد عاش في فترة سابقة لعهد نوح. وكشف البحث أنّ نسبة ٣٠ بالمئة فقط يعرفون أسماء مدوّني الأناجيل الأربعة المفترَضين، متّى ومرقس ولوقا ويوحنّا.

على مستوى آخر، ما يَبرُزُ من خلال كتاب «الدين والعَلْمَنة في المجتمعات الغربية» أنّ اللائكية لا تعني انفصالًا صارمًا بين مؤسسة الدولة ومؤسّسة الكنيسة، بل هناك تداخل وتعايش يبلغ مستوى التنسيق والتكامل بين الطرفين، لا سيما في المجالات التربوية والصحية والإغاثية. يلوح ذلك بشكل بارز في الأموال التي تحصل عليها الكنيسة الكاثوليكية من خَصم الضرائب على الدخل السنوي لكلّ مواطن، وهو ما يبلغ نسبة ٠،٨ بالمئة في إيطاليا، و ٠،٧ بالمئة في إسبانيا، ويتراوح بين ١ و ٣ بالمئة في فرنسا، وأمّا في أنجلترا وبلاد الغال فهو يبلغ ١ بالمئة. في حين في النمسا فتبلغ تلك الضريبة المدفوعة من المواطن وتحصل عليها الكنيسة ١،١٥ بالمئة، وأما في ألمانيا فهي من أعلى النسب حيث تتراوح بين ٨ و٩ بالمئة، تليها سويسرا بنسبة تتراوح بين ٥ و ٦ بالمئة. تُمثّل هذه الأموال الطائلة المرصودة للكنائس سندًا قويًّا للأنشطة الدينية، ناهيك عن أنّ قسطا من تلك الأموال يُوجَّه إلى ترميم الكنائس التي تتحوّل إلى مزارات سياحية بعيدا عن وظائفها الأصلية. وعلى العموم تُمثّل تلك الأموال المرصودة للشأن الديني عنوانَ وفاق بين المؤسسة الدينية ومؤسسة الدولة. قال كردينال مقاطعة كولونيا، جواشيم مايزنر، معلّقًا على هذه المداخيل الوفيرة، ضمن ما أورده جون آلين في دراسة منشورة في «ناسيونال كاتوليك ريبورتر» بتاريخ ١٧ مارس ٢٠٠٦: «لم تتهاطل علينا أموال بهذه الوفرة، كما حصل في العقود الأربعة الأخيرة، ولم نخسر أعدادًا للمؤمنين، كما حصل في العقود الأربعة الأخيرة... في كولونيا لدينا مليونان و ٨٠٠ مسيحيّ من أتباع الكنيسة الكاثوليكية، خسرنا منهم خلال الثلاثين سنة الأخيرة ثلاثمئة ألف. ففي ما يقابل كلّ طقس عماد جديد، أي دخول في الدين المسيحي، لدينا ثلاث جنائز».

يتحدّثُ الكتاب عن توجّه آخر رافقَ حقبة ما بعد الحداثة وأوضاع التديّن السائلة في الغرب، يتمثّل في تطوّر ممارسات روحية مغايرة وَجَدت انتشارًا، وهي تقف على نقيض الممارسة الدينية التقليدية. فقد أبرزت سلسلة من الدراسات من إعداد «مركز بيو للأبحاث» أُجريت خلال العام ٢٠١٢ أنّ نسبةً هامّة من المستجوَبين يمارسون رياضات روحية ولا يعتبرون أنفسهم متديّنين وفق النمط المألوف، وهي أنواع من الممارَسات الروحانية الباحثة عن الحقيقة والسلام الداخليَيْن، وجدت رواجًا في العقود الأخيرة. ما يلاحظه مؤلّف الكتاب أنّ العروضَ الدينية قد باتت أكثر سيولةً وأكثر تنوّعًا، خارج الكنائس الرسمية، وهو ما لم يُؤدّ إلى تواري التديّن، ولكن إلى تعدّد الانتماءات.

مع ما ذكرناه آنفا حول وقائع الإفلاس والإغلاق لبعض الكنائس في الغرب، وكذلك ما أوردناه بشأن أشكال التراجع في أعداد المعنيين بأداء الطقوس، والتبدل في خصائص التديّن، فإنّ صورة الله لا تزال حاضرة بقوة في نفسية الإنسان الغربي. يلوح هذا جليّا في الثقافة الشائعة عبر الشبكة العنكبوتية. فخلال العام ٢٠٠١ استخدمَ ٣٠ مليون أمريكي الشبكةَ لغرض البحث عن إجابة على صلة بقضايا الدين والروحانيات، بما يَفوق بكثير الاستعمال لغرض اللّهو أو الاقتناء. وخلال العام ٢٠٠٤ بلغت صفحات الويب باللغة الإنجليزية، المخصَّصة للمواضيع الدينية ١٣٥ مليون صفحة، بما يفوق صفحات الجنس التي بلغت ١٠٥ ملايين صفحة. وخلال العام ٢٠٠٧ كانت كلمة الألوهية الأكثر بحثًا عبر الشبكة. وخلال العام ٢٠١٠ بلغ عدد المبحرين في المواقع الدينية المليار ونصف المليار نسمة. وبشكل عامّ يتلخّص واقع الدين في الغرب كما يقول عالم الاجتماع أندراو غريلاي: «رغم أنّ الدين دائما في حالة تنازل فهو دائما أيضا في حالة انبعاث».

نشير إلى أنّ كتاب «الدين والعَلْمَنة في المجتمعات الغربية» هو من تأليف اليسوعي جوفاني كوتشي، وهو أستاذ جامعي متخصّص في الفلسفة وعلم النفس، يدرّس في الجامعة الغريغورية في روما، أعرق جامعات اللاهوت الكاثوليكي في الغرب. نَشَر الكاتب مجموعة من الأعمال منها: «في تجاوز ريكور لفرويد» و«أسرار الشرّ»، وهو من ضمن الهيئة القارة للكتابة في مجلّة «لاشيفيلتا كاتوليكا» المرموقة.

- الكتاب: «الدين والعَلْمَنة في المجتمعات الغربية».
- المؤلف: جوفاني كوتشي.
- الناشر: شيتاديلا إديتريشي (أسّيزي-إيطاليا)، 2019م.
- عدد الصفحات: 258 صفحة.

* أكاديمي تونسي مقيم بإيطاليا

2020.. الوباء والنهوض
جولييوسابيللي

فاتنة نوفل *

كانت هناك عدة أوبئة في تاريخ البشرية تركت آثارا عميقة؛ لذلك لا جديد أن وباء عامي ٢٠١٩ و٢٠٢٠ هو مثل الأوبئة التي سبقته سيتم تجاوزه وأرشفته. وهو بالتأكيد أول وباء يتكشف في عصر العولمة، علاوة على ذلك في عولمة مريضة. ولهذا السبب أصبح مصطلح الجائحة اليوم أكثر من الماضي مرادفًا للتحول بمعناه الأعمق الذي يجعلنا ننتقل من مجتمع إلى آخر، كما مررنا في القرن الثامن عشر في بريطانيا العظمى وفي منتصف القرن التاسع عشر في فرنسا وبلدان أخرى من عصر ما قبل التصنيع إلى العالم الصناعي. نحن اليوم نواجه مثل هذا التحول الهام؛ إذ يجب علينا إعادة صياغة فرضياتنا في إدراك ما يتعلق بمركزية عقدة التحول لكننا لسنا مستعدين. هذا الاحتمال يبدو أنه يأخذنا بعيداً عن الأسئلة التي تثير معظم المراقبين والجمهور: هل سنخرج منها؟ كم من الوقت تستغرق؟ سيكون من الأسهل التدقيق في ملامح العالم في المستقبل؛ وبالتالي في نموذج اقتصادي في أزمة متقدمة للغاية وفي زمن انتهى فيه مجد النيوليبرالية، حيث لم يعد هذا الأخير منتصراً كما كان طوال دورة كاملة يمكننا أن نسميها تغييرا في الوعي لاتجاه جديد وأسلوب حياة جديد يمكن أن يؤدي إلى خلاص البشرية التي تعتبر اليوم في خطر وإن كان التصرف عند نقطة البداية لهذا التغيير هو الاعتراف بما حدث وكيف وصلنا إلى هنا. أراد النيوليبراليون الذين سيطروا على المشهد الاقتصادي والسياسي للدورة الختامية أن نصدق أن قوانين الاقتصاد فُرِضت وأنه لن يكون ممكناً تغييرها، كما أننا لم نكن قادرين على التدخل في العصر الأخير لتحرير أنفسنا من الحقائق «الهيكلية».

إن المدافعين عن هذه الحتمية الاقتصادية هم بالتحديد المسؤولون عن أزمة لها مدى كبير، هم أنفسهم ولّدوا وطوّروا باسم المصالح الفردية احتياجات الناس والعائلات والشركات الذين يضطرون إلى النضال بشكل دائم وبصعوبة أكبر من أجل البقاء. هذا ما حدث عندما انفصل الاقتصاد المالي عن الاقتصاد الحقيقي للآخرين، الأمر الذي أدى لقطع علاقاته مع المجتمع الذي كان لا بد من فصله عنه. اليوم هذا الوباء لا يفعل شيئًا سوى تسليط الضوء على كل هذا: لذلك سيكون من غير المجدي والخطير كما فعلنا فيما يتعلق بأزمة عام ٢٠٠٨، تركيز اهتمامنا ببساطة على عواقب الأزمة وعلى طريقة الخروج منها. ما نشهده في بداية عام ٢٠٢٠ وما مررنا به منذ عام ٢٠٠٨ هي الأحداث التي أضعفت المجتمع ككل أولاً واليوم نتساءل عن وجوده. لذلك من المهم تطوير نظريات جديدة من التحليل. إذا كان الأمر يبدو قبل ذلك مبالغًا فيه للحديث عن أزمة حضارة، فلا يمكن لأحد الآن إخفاء هذا الواقع.

العنوان «الوباء والنهوض» يقول كل شيء عن هذا الكتاب، الذي يتنقل باستمرار بين مستوى عملي واقتصادي وأخلاقي كما هي الحال في الحياة الواقعية؛ حيث لا يمكن فصل الظاهرة أبدا عن معناها. فكلمة النهوض، التي تقفز علينا بحملها الهائل من الإيحاءات والتي هي في الوقت نفسه كلمة بسيطة: تعني القيام ويمكن استبدالها بكلمة الانتعاش المستخدمة اقتصاديًا، ليتعامل المؤلف مع مواضيع مختلفة: العمل، وتداعيات الاقتصاد الدائري، ونماذج الاستجابة للأزمة، والتضليل الطبي للإمبريالية الصينية. ولا يتوانى فيها كذلك عن تقييم نتيجة دراماتيكية محتملة للأزمة وهي خروج ألمانيا من منظومة اليورو بطريقة عنيفة ومفاجئة.

يحلل مؤرخ الاقتصاد سابيللي الأزمة التي تسببت بها حالة طوارئ الفيروس التاجي في إيطاليا والعالم بدءًا من الأخطاء التي وقعت في إدارة الوباء وصولاً إلى آثاره الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والتي ستكون لها عواقبها بالتأكيد؛ إذ يصبح هذا الفيروس قصة غير متوقعة ولا يمكن التنبؤ بها جلبت أمام الشعوب تناقضات العملية التاريخية التي هي السبب والضحية في الوقت نفسه. إنه منشور يكسر الضوء الاجتماعي ويسمح لنا برؤية وفهم ما حدث وما يحدث.

بادئ ذي بدء، هناك نقد للديمقراطية الليبرالية كشكل غير قادر على خلق التوليف بين الليبرالية والاشتراكية كما لم يحدث من قبل في التاريخ؛ حيث النخب منفصلة عن الجماهير، والبنية الاجتماعية محرومة من الطبقة الوسطى وتحكمها في مفتاح وظيفة الهياكل الدولية الفوقية في حالة تأكل فيها العولمة شكل الدولة وحقها الدستوري ونهوض الأمم مجددا لوجود أزمة في مشاعر المواطنة والإنتماء للدولة. كل ذلك مع كشف الصين عن وجهها الإمبريالي الذي يقرأ فيه سابيللي صعود شي جين بينغ إلى السلطة كنقطة تحول تقود الصين إلى التحول من قوة على الأرض إلى قوة عظمى قادرة على الدخول في صراع مع الولايات المتحدة حول السيطرة على الفضاء الآسيوي، والذي يجب أن يؤدي إلى رد فعل من الغرب لأن «الصين ليست دولة رأسمالية مثل الدول الغربية ولكنها نظام دولة تسيطر عليه بيروقراطية ديكتاتورية تهدف إلى السيطرة على العالم» وستكون منطقة احتواء التوسع الصيني إفريقيا وهنا ينتقد موقف الخارجية الإيطالية الخالي من العمق التاريخي في السياسة؛ حيث تمتلك دولا كفرنسا والولايات المتحدة روحًا زراعية وتصنيعية؛ وبالتالي تجارة حرة وهذه السرعة المختلفة في الإنتاج العالمي شبه الإقليمي تخلق أزمات.

يقول البروفيسور سابيللي: «بضراوة مخيفة ضربت بجعة سوداء ذات أبعاد هائلة العالم» ومن المستحيل اليوم أن نعرف على وجه اليقين ما ستكون عليه نتائج «هذه السنة القاتلة». سيستغرق الأمر وقتًا لفهم الآثار الحقيقية لما يحدث في العالم. ومع ذلك، هذا لا يعني إعفاءنا من إجراء تحليل لكيفية معالجة هذه الحالة الطارئة.

خضع جميع الأشخاص الذين اتصلوا بالمصابين لفحوصات دقيقة باستخدام إمكانية التتبع والترابط عن طريق الهواتف اللاسلكية ونماذج التنبؤ الخوارزمية. تم اتخاذ القرارات من قبل هيئة مركزية عملت برؤية جمعت بين علم الاجتماع والمعرفة الأنثروبولوجية والطبية، لكنها تفتقر إلى معرفة النسيج الاجتماعي لبلدنا الذي يتكون من آلاف البلديات الصغيرة والمتوسطة الحجم وعدد لا يحصى من أنشطة الإنتاج الصغيرة جدًا؛ لا يستطيع الكثير منهم العمل عن بُعد في «العمل الذكي» ولكنهم لا يزالون في المصنع وفي المكاتب التي سيتم تعقيمها باستمرار ليكون الوباء وإدارته هما ثمرة مريرة لمجتمع ونظام اقتصادي معولم، فضلاً عن تراجع السياسة والدولة والروح العامة. ويتابع سابيللي أنه بالرغم من الوضع الدرامي المؤسف الذي يحيط بنا يمكننا أن نتعلم منه ليصبح فرصة للنهوض. «إن

الصالح العام ثمين جداً في هذه اللحظة ويجب أن يوضع في قلب المشهد لتحقيق مكاسب وطنية»، وللقيام بذلك، يجب على المجتمع أن يحقق قفزة حقيقية بالانتقال من هيمنة السوق إلى الاعتراف بالعمل كأداة رئيسية لضمان العدالة الاجتماعية والرفاهية والسلامة والعدالة والتغلب على التنظيم النيوليبرالي للاقتصاد.

«طريقتنا في بناء النظام حتى الآن هي التعددية -بدون حكم جيد- حيث الفصل بين المصالح الخاصة والعامة وتغليب الخاصة على العامة». يقول الكاتب إنه لا يمكن الاستمرار في هذا النموذج ويجب أن يتغير لأن عاقبته الوحيدة هي تدمير المجتمع بدون أي بدائل. لذا يجب أن يكون الإنسان والعمل هما أكثر المواضيع السائدة، وإذا أرادت الرأسمالية البقاء يجب أن تتغير من أجل الحفاظ على نفسها من خلال إعادة التكنولوجيا إلى الدور الأكثر صحة وهو دعم العمل البشري الذي هو العنصر الأساسي لقيمة أي منظومة، وعدم سيادة الثنائي الدولة وحالة السوق ولكن الثلاثي الدولة والمجتمع وحالة السوق ليعود القانون العام محوريًا مرة أخرى؛ لأننا إذا وجدنا القوة للانحناء على الدراسة والتأمل الأخلاقي والفلسفي فإن مفهوم المجتمع نفسه سيتغير كما ظهر في الفكر الاجتماعي الألماني بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين: فالمجتمع يمكنه دائمًا إعادة بناء نفسه كما علمنا ذلك الاقتصادي العظيم ألفريد مارشال.

الثقافة بالمعنى الأنثروبولوجي كذلك تحدد الاقتصاد والعلاقات الاقتصادية. إن الأزمة الثقافية التي سببها الفيروس التاجي لا يمكن لها إلا التأثير على القواعد الاقتصادية الأوروبية أيضًا. أوروبا في حالة وباء ثقافي كارثي، تم فيها التخلي عن عملية التوحيد الأوروبية ضمن مشروع اجتماعي ديمقراطي تضامني على الفور بعد انهيار جدار برلين في عام ١٩٨٩ لصالح أوروبا مركزية تعتمد على السوق ويهيمن عليها رأس المال. وحدث ذلك في مواجهة الوباء كما هي الحال في مواجهة الأزمة الاقتصادية والصعود المهدد للإمبريالية الصينية، عكس ما كان يمكن أن يحدث لو كان للقوى الأوروبية القارية والولايات المتحدة توجه استراتيجي واقعي قائم على ما يسمى «المصلحة السائدة» الجيوسياسية.

ومع ذلك، يجب على القوى الأوروبية أن تنظر إلى ما يحدث في آسيا إذا كانت لا تريد أن تطغى عليها الإمبريالية الصينية. ولكن للقيام بذلك نحن بحاجة إلى تفكير استراتيجي عالمي، والظروف الثقافية التي تم فيها الاستجابة لهذا الوباء تبين أن أوروبا غير موجودة كقوة ثقافية وغياب الثقافة هو الذي ينزع السلاح وليس نقص الأسلحة.

وهنا نستعرض النموذج الصيني كما يتضح من وصول وفد الصحة إلى إيطاليا التي تكافح ضد الفيروس التاجي،

والذي يهدف لتعزيز الاختراق الاقتصادي والثقافي الصيني في إيطاليا. اختراق بالفعل عميق للغاية كما يتضح من عمل الدبلوماسية الصينية في قطاع صناعات الاتصالات الاستراتيجية والاستخبارات السرية الخاصة كما تم الإعلان عنه في البرلمان بشفافية كبيرة.

... إنَّ دور الصين في الواقع، يرجع جزئيًا فقط إلى أسباب ديموغرافية - جيوسياسية: فمن المؤكد أن لديها موارد كبيرة فيما يسمى «العناصر الاستراتيجية» الثقيلة. لكن السبب الحقيقي لاحتكارها الاقتصادي النسبي يكمن في التخلي عن الأبحاث التي تمت في الغرب في المقام الأول.

كل هذا يبدأ بعصر جديد من السلطة الإمبريالية الصينية يتجلى في صعود شي جين بينغ الأمين العام الحالي للحزب منذ ١٥ تشرين ثاني/نوفمبر ٢٠١٢ وكرئيس لجمهورية الصين الشعبية منذ ١٤ آذار/مارس ٢٠١٣ وهو أحد هؤلاء «الأمراء» المنحدرين من الحركة الماوية التي تشكلت في الخارج ثم عادت إلى وطنها لتحتل مناصب مرموقة في السلطة. لذلك من الضروري دراسة الأطروحات التي تأسست عليها فكرة الإمبراطورالجديد والتي تعود فيها الصين إلى ما كانت عليه في أصولها الإمبراطورية: قوة عظمى تسعى للهيمنة على العالم.

الصين الآن تطمح بأن تصبح قوة بحرية وهذا يفتح سيناريوهات عالمية جديدة. كل هذا يعكس ويعزز معًا تحول الصين من طاقة برية إلى طاقة بحرية ليفتح هذا التحول صراعًا مع الولايات المتحدة للسيطرة على المساحة الآسيوية مما يثير الصدام في المقام الأول مع اليابان وفيتنام وكوريا الجنوبية؛ ليكون المجال البحري الآسيوي على المحك من خلال تصنيف صعود الصين كقوة جيوسياسية إذ لم تكن هناك من قبل قوة بحرية بهذا التأثير الديموغرافي الكبير، وكذلك التهديدات المتكررة التي شُنت ضد الغرب بما يسمى «حرب العُملات» والتي تحاول مجموعة العشرين السيطرة عليها دون جدوى. وهذا يمكن أن يجعل الصين تفقد هؤلاء الحلفاء الذين لديها في جميع أنحاء الغرب: الأوساط الفكرية، والبنوك الاستثمارية الكبيرة، والدوائر المالية بشكل عام والتي نشرت الفكرة بحسن نية -في بعض الحالات- عن عدم عدوانية الصين. وفي مواجهة كل هذا، تغيب أوروبا كقوة سياسية وبحرية، تختنق بسبب صراعاتها على السلطة التي يقول المراقبون إنها كارثية.

وهذه هي المشكلة الجديدة الحقيقية للنظام العالمي في مواجهة هذا المرض الخطير إذ يجب الاعتراف بتواضع بأن النمو الذي لا يمكن إيقافه للعولمة المالية والصين المرتبطة به ارتباطًا وثيقًا سيجعلنا نعاني من انتكاسة. إن إعادة البناء والبناء، على سبيل المثال التصنيع في كل من أراضي جنوب وشمال الكوكب في شكل مستمر وإعادة التفكير في الاقتصاد الدائري كنموذج جديد للإنتاج وليس فقط لإعادة تدوير النفايات، وكذلك مكافحة تغير المناخ.

وإذا كان هناك خلاص بالنسبة لبقية أوروبا، فسيأتي من البحر، كما نحتاج أن ندرك أن الليبرالية الجديدة قد انتهت وأن أزمة الحضارة واضحة ويجب الجمع بين المساواة والاختلاف لأن غالبية البلدان أو المناطق لديها ثقافة وطنية ذات خصوصية محددة للغاية علينا احترامها؛ وكما قال أليساندرو مانغيا، بينما كان هناك عملية توحد في الحرب ضد الإرهاب الإسلامي، كان الأثر الأول للوباء الحالي هو الانهيار والتباطؤ في العلاقات الاجتماعية لأن الاتحاد الأوروبي يفتقر إلى تمثيله الروحي، وقِيَمُه هي قِيَم مصطنعة تم جمعها في مواثيق حقوق منافقة وغير واقعية وحماية المصلحة الوطنية أو بالأحرى مصالح المجتمعات تم جمعها ضمن الشكل السياسي للدولة الوطنية.

ينتهي الكتاب بملاحظة أن التاريخ لم ينته بعد، والوباء جزء من العملية، وأن كل تحول اجتماعي بحد ذاته «حدث صحي». الصحة أيضا وباء ثقافي يهز الرجال والمجتمعات والاتحاد الأوروبي في الصدارة.

- العنوان: «2020.. الوباء والنهوض».
- المؤلف: جوليو سابيللي.
- الناشر: غويريني وشركاؤه، إيطاليا، 2020م.
- عدد الصفحات: 128 صفحة.

* مترجمة عربية مقيمة في إيطاليا

جائحة الديمقراطية.. فلسفةٌ في أزمة فيروس كورونا

دانييل إنيراريتي

فيصل الحضرمي *

يشغل الفيلسوف الإسباني دانييل إنيراريتي منصب مدير معهد الحوكمة الديمقراطية بإقليم الباسك بإسبانيا، وهو بروفسور في الفلسفة السياسية والاجتماعية، وكاتب مقالات دائم الحضور في صحيفة الباييس وغيرها من الصحف الإسبانية. كما سبق له العمل كأستاذ زائر في عدد من المؤسسات الأكاديمية الأوروبية والأمريكية، مثل جامعة السوربون (باريس١)، وكلية لندن للاقتصاد، ومعهد ماكس بلانك بهايدلبيرغ. يُعرف عن دانييل إنيراريتي اشتغاله الكبير على موضوع الديمقراطية، من بين مواضيع سياسية أخرى؛ إذ صدرت له عدة كتب في هذا الجانب؛ منها: «ديمقراطية المعرفة» ٢٠١١، و«الديمقراطية في أوروبا» ٢٠١٧، و«فهم الديمقراطية» ٢٠١٨. كما صدر له هذا العام كتابان في مسألة الديمقراطية، هما: «نظريةٌ في الديمقراطية المعقدة: الحكم في القرن الحادي والعشرين»، والكتاب الذي بين أيدينا.

ويأتي صدور الكتاب في ظل أزمة «كوفيد ١٩» الذي أعلنت منظمة الصحة العالمية تصنيفه كجائحة في الحادي عشر من مارس ٢٠٢٠، بعد أربعة أشهر تقريباً من اكتشاف أول حالة له في الصين في السابع عشر من نوفمبر من العام الفائت، والذي تسبب -إلى حين نشر الكتاب نهاية شهر مايو الماضي- في وفاة ٢٤ ألف شخص في إسبانيا وحدها، وأكثر من ٣٧٧ ألفاً حول العالم.

ويسعى دانييل إنيراريتي من خلال هذا الكتاب، كما يشي العنوان أعلاه، إلى تقديم فلسفة ناجعة للتعامل مع أزمة فيروس كورونا، والتنويه بأهمية الدور الذي يمكن لديمقراطية عالمية تتجاوز الحدود الجغرافية لعبه للخروج من الأزمة الراهنة بأقل الأضرار.

وتتطرق فصول الكتاب الأحد عشر إلى مجموعة من المواضيع ذات الصلة؛ لعل أهمها: التعقيد الذي تتسم به الأزمة الراهنة، والنهج الأمثل لمقاربتها، وحال الديمقراطية في زمن الأزمة.

جائحةٌ معقدة

ويستهل دانييل إنيراريتي كتابه بتسويغ الجدوى من تأليفه. فقد جرت العادة في الأزمات أن يوضع الأشخاص العمليون في المقدمة؛ أولئك الذين يتخذون القرارات، وينظمون الأمور، ومع ذلك ينبغي الإصغاء أيضاً لأولئك الذين يبدو ظاهرياً أنهم يقومون بعمل أقل حسماً، مثل تفسير ما يجري لنا. وضعُ نظريةٍ حول الأزمة ليس ترفاً، حتى في هذا الوقت الحرج الذي يعاد فيه ترتيب الأولويات؛ لأن معرفة وتحديد طبيعة الأزمة شرطٌ أساسي لاتخاذ أفضل القرارات.

يعتقد إنيراريتي أن الجهل تحديداً، وليس نقص الحزم، هو علة الكثير من القرارات الخاطئة اليوم: كوصف الأزمة بأنها مثل الحرب، أو تصنيف الفيروس على أنه دخيل، أو اللبس الحاصل حول دور الخبراء في الأزمات، أو نقص الانتباه الجمعي للواقع حين يتعلق الأمر بأبعاده الكامنة، والتي لا تتكشف إلا على المدى الطويل.

ووفقاً لدانييل إنيراريتي، فإنه لا ينبغي اعتبار النظرية مضيعة للوقت، حتى في هذه الأوقات الحرجة، وحتى لو كانت بعض الأخطاء العملية ناجمةً عن عيوبٍ تنظيرية. فعند محاولة سبر غور الأزمة، تنهض أسئلةٌ تحيل على نظريةٍ لمجتمع ما بعد كورونا، وكل ما تم التفكير فيه، فيما يتعلق بالديمقراطية والسياسة، والعلاقة بين العام والخاص، ومعنى القوميات وتبرير أوروبا، بل وحول طبيعة العالم الذي نحيا فيه، يتطلب تقصياً جديداً. أحد اهتمامات إنيراريتي الأساسية هو ضرورة التفكير بمصطلحات التعقيد المنظومي، وتحويل المؤسسات لتكون قادرةً على حكم المنظومات المعقدة وديناميكياتها، خصوصاً حين نواجَه بأخطار متصلة ببعضها البعض، أي حين يمكن أن تمضي عدة أشياء معاً في الاتجاه الخطأ. ومن الجلي بالنسبة لإنيراريتي أن الجائحة الحالية لم يُتعامل معها من هذا المنظور في جميع مراحلها. ففي البداية شبهها الكثير من الساسة والمحللين بإنفلونزا موسمية متموضعة في منطقةٍ ما في دولة بعيدة، وأن كل ما علينا خشيته هو المبالغة في الهلع. لقد تم الاستخفاف بأرقام الإصابات والوفيات لأنها لم تُفهم كما ينبغي لها أن تُفهم في المنظومات المعقدة: أي في سياق منظومة عامة تأخذ في الاعتبار طريقة تأثير الوباء على البنى التحتية الصحية، وارتدادات هذا التأثير.

النهج الأمثل لمقاربة الأزمة

يخبرنا إنيراريتي أن عدم التفكير بطريقة منظومية، والتعامل مع البيانات بمعزل عن السياق العام، يجعل معدلات الإصابات والوفيات تبدو كما لو كانت غير مقلقة، أما حين ننظر إلى ما يحدث من منظور منظومي فإن أصغر الأرقام ستشير إلى كارثة محتملة. صحيح أن الإنفلونزا الموسمية تقتل هي الأخرى أعداداً كبيرةً من الناس في كل عام، ولكن المشكلة الحقيقية تكمن فيما قد تعنيه إضافة جائحة فيروس كورونا إلى إنفلونزا موسمية في أوج انتشارها، كما أن السؤال الذي ينبغي علينا طرحه هو إلى أي مدىً يمكن أن يتسبب ذلك في انهيار المنظومة الصحية. تفرّق نظرية المنظومات المعقدة بين التآثرات الخطية والتآثرات غير الخطية، أو المعقدة. في حالة التآثرات الخطية يتم التعامل مع وقائع متوافقة مع توقعاتنا وبنانا التحتية، ويمكن بالتالي جمع الكميات المختلفة للتنبؤ بالوقع المشترك لها. أما في حالة التآثرات غير الخطية، فإنه لا يمكن ببساطة إضافة شيءٍ ما إلى شيءٍ آخر، وإنما تؤثر الأشياء في غيرها بطريقة تراتبية من الأعلى إلى الأسفل -فيما يعرف بتأثير الشلال- ما يسمح بأن تَؤول التغييرات الطفيفة إلى تحولات هائلة.

وتعدُّ أزمة فيروس كورونا حدثاً من هذا النوع الأخير.

فللمنظومات الصحية طاقة استيعابية محددة، والأقسام المتخصصة فيها، كقسم العناية المركزة، تعمل عمل عنق الزجاجة حين يكون هناك انفجار في أعداد الحالات المرضية الحرجة. لذلك؛ فإن تزامن مرض فيروسي غير متوقع مع الانفلونزا الموسمية لا يشكل مضاعفةً لمأساة الانفلونزا وحسب، وإنما قد يكون أمراً كارثياً. تتطلب العناية بمرضى فيروس كورونا مواردَ مكلفةً للغاية، وليس مدى انتشار المرض هو ما يعنينا لفهم خطورته، وإنما حقيقة أن إثقال كاهل أقسام العناية المركزة بالمرض قد يتسبب أيضاً في ارتفاع نسبة الوفيات المرتبطة بأسباب أخرى، من قبيل السكتات القلبية، وحوادث السير، والجلطات الدماغية. إن تعبير «تسطيح المنحنى» مثالٌ جيدٌ على التفكير المنظومي، كما أن الإغلاق الشامل، والتباعد، اللذين تفرضهما السلطات، لا علاقة لهما بالخطر الذي قد يتسبب به أحدنا بمفرده، ولكن الغاية منهما درءُ أي تفشٍ كبيرٍ من شأنه أن يتسبب في انهيار المستشفيات، ومن هنا ضرورة التفكير بطريقة منظومية إذا ما أردنا فهم هذا النوع من الإجراءات.

الديمقراطية في زمن الجائحة

يرى دانييل إنيراريتي أن الديمقراطية تقف اليوم أمام مفترق طرق غير معهود، وأن نجاتها مرتبطة بقدرتها على الفعل في البيئات الحالية المتسمة بالتعقيد، وعلى الموائمة بين تطلعات الفاعلية ومتطلبات الشرعية. ويشير إنيراريتي إلى ما يثار حول وجود انقلابٍ من شأنه أن يطيح بالرأسمالية، وإلى تحذير البعضِ من نظام تحكم يسعى إلى تعزيز التوجهات الاستبدادية في ما يعرفُ بالديمقراطيات غير الليبرالية، مثل إسرائيل والمجر اللتين استغلتا المرض لتأكيد صورتهما غير الليبرالية. وفي رأي إنيراريتي فإن التدابير الاستثنائية تشكل سابقةً خطيرة، وانقطاعاً للحريات، لكنها ستقبل من الجموع الخائفة التي ستغريها الوعود بالفاعلية على حساب «الشكليات الديمقراطية».

لقد أخذ الجدل بين الفلاسفة وعلماء الاجتماع حول الديمقراطية ما بعد كورونا طابعاً ملحمياً، ونبوئياً، وسوداوياً. هناك من يعلن أننا سنشهد موجة جديدة من الاستبداد مثل جورجيو أغامبين وبيتر سلوتردايك وناومي كلاين، وهناك من يمجد الفاعلية الصينية ويعدها مثالاً يحتذى به مثل بيونغ-شول هان، فيما يحذرنا يوفال نوا هراري من الترصد التوتاليتاري الذي تمثله المراقبة البيومترية،

ويعود سلافوي جيجيك من جديد للقول بالنهاية الحتمية للرأسمالية. يعيب إنيراريتي على تنبؤات هؤلاء المفكرين نغمة المبالغة وضعف الأساس العلمي، ويرى أن بعضهم بحاجة إلى دراسة علم السياسة المقارنة ليكونوا على دراية جيدة بالديمقراطيات الأوروبية ودساتيرها. ويتصدى إنيراريتي للدفاع عن الديمقراطية مفنداً الشبهات المثارة حول موضوعاتها الثلاث الرئيسة، وهي: الاستثناء، والفاعلية، والتغير الاجتماعي.

وفيما يخص مسألة الاستثناء، أي اللجوء إلى تعطيل بعض الحريات ومنح صلاحيات أكبر لطرفٍ من الأطراف، يزعم جورجيو أغامبين أنه تم استغلال الوباء لجعل الاستثناء الوضعَ الطبيعي للديمقراطية، أما بيتر سلوتردايك فينذر بما أسماه خضوعاً لدكتاتورية طبجماعاتية médico-colectivista تجعل من النظام الغربي مساوياً للصين في استبداديته. ويرد إنيراريتي على هذه المزاعم بالتذكير بأن حالة الطوارئ المفروضة اليوم في أوروبا لم تكن موجودة قبل أزمة كورونا، ولن تظل موجودة بعدها، ما ينفي القول بأن الاستثناء هو الحالة المعتادة للديمقراطية. مضيفاً أن حالة الطوارئ التي فرضتها الحكومات الأوروبية مقيدة بثلاثة شروط، هي: أن يكون الهدف منها مكافحة مرض «كوفيد ١٩»، وأن تكون محدودة الوقت، وأن لا تؤدي إلى تجاوزات قانونية.

أما فيما يتعلق بفاعلية الديمقراطية حين يتطلب الأمر حلولاً عاجلة لأزمةٍ طارئة، فإن إنيراريتي يشير إلى أن الأنظمة الديمقراطية قد تبدو أقل جاهزية لمثل هذه المواقف من الأنظمة الشمولية، نظراً لبطئها في اتخاذ القرارات، وضعف تحكمها في المجتمع، وتواضعها في انتهاك خصوصيات الناس. إلا أنه يؤيد ما أشار إليه فوكوياما من أن مشكلات عدم الفاعلية التي تعاني منها الحكومات الديمقراطية لا علاقة لها باحترام الإرادة الشعبية والإجراءات القانونية، كما أن الأوتوقراطيات ليست مثالاً يحتذى فيما يخص الفاعلية. فالصين مثلاً لا يمكن عدها نموذجاً ناجحاً في هذا الجانب؛ مع شح المعلومات حول حقيقة الوضع فيها بسبب الرقابة التي تفرضها على الإعلام، كما أن دولاً عديدة تمكنت من فرض إجراءات الحجر والإغلاق الشامل دون أن تضحي بالقيم الديمقراطية كما فعلت الصين.

وأخيراً.. يُناقش إنيراريتي مشكلة التغيرات الاجتماعية (الإصلاحات/التحولات) التي تنتجها الديمقراطيات عن قصد، سواء بطريقة تدريجية أو دفعةً واحدة. ولأن مثل هذه التحولات قليلة الحدوث في الديمقراطيات الراهنة، راح البعض يعول على الكوارث الطبيعية لإحداث التغيير الذي ينشدونه، ما يفسر، ربما، إعلان سلافوي جيجيك أن الشيوعية الجديدة باتت وشيكة الحدوث. إن التغيرات الاجتماعية في الديمقراطيات لا علاقة لها بما يسميه إنيراريتي «الرؤية القربانية» للتاريخ السياسي، والتي تعتقد أن الفشل سيُنتج ضده بطريقة آلية. تلك الرؤية القائمة على افتراضين خاطئين: أن السلبي يُنتج الإيجابي، وأن الإيجابي سيتم تقاسمه بالتساوي. هنا يلفت دانييل إنيراريتي النظر إلى حقيقة أن أوقات الأزمات -على عكس ما تذهب إليه الرؤية القربانية للتاريخ السياسي- قد تقود إلى أشكال معينة من عدم التوازن الذي سيمثل سانحةً مواتية للأنظمة السلطوية والشعبوية غير الليبرالية.

• الكتاب: «جائحة الديمقراطية.. فلسفةٌ في أزمة فيروس كورونا».
• المؤلف: دانييل إنيراريتي.
• الناشر: غالاكسي غوتنبرغ، إسبانيا، 2020م.

* كاتب عماني

الوحشية
أشيل مبيمبي

سعيد بوكرامي *

يأتي كتاب (الوحشية) للمؤرخ والفيلسوف الكاميروني المعروف أشيل مبيمبي في أوانه فقد صدر بالتزامن مع الاعتداء الوحشي الذي طال المواطن الأمريكي من أصول زنجية جورج فلويد وأدى إلى وفاته. ومعروف أن هذه المأساة أعادت ذكريات سيئة ودامية إلى الأذهان وأحيت تاريخا استعماريا تجاه الأفارقة الزنوج بصفة عامة والأقليات في أنحاء العالم بصفة خاصة. يساير هذا الكتاب الجديد أعمال أشيل السابقة مثل (الخروج من الليل الجسيم) (٢٠١٠). و (نقد العقل الزنجي) (٢٠١٣) و (سياسة العداوة) (٢٠١٦) لكن في كتابه الأخير يحلل أوجه القصور في الديمقراطيات الليبرالية، التي تستسلم لإغراء تثبيت حالة طوارئ دائمة، وتقييد الحريات الفردية باسم مكافحة الإرهاب، ومؤخرا «تحويل حالة الحرب إلى وضع مدني» مما ساعد على الإقصاء والميز العنصري. وقد عزز هذا التوجه تطوير التقنيات والتكنولوجيا الرقمية - التي تساعد على مراقبة الفرد وتصنيف السكان على نحو أفضل وجعل الإنسانية كيانًا مصطنعًا ومُعززًا ومتزايد الارتباط الرقمي. كما عززت الإنترنت والشبكات الاجتماعية «النرجسية الجماعية». ونحن نشهد العودة العاطفية للهوية من خلال الفرد والعرق والجنس والأمة.

لا ريب أن مجالات الوجود البشري جميعها أصبحت شبه متحكم فيها، وبذلك أضحت هذه المجتمعات البشرية الآن تقاد وفق توجيه واحد، وهو ما يعرف اليوم بالحوسبة الرقمية، ورغم أن كل شيء يدفع نحو توحيد غير مسبوق للكوكب، فإن العالم القديم المشكل من الأجسام والمسافات، والمواد والمجالات والمساحات والحدود، لا يزال يقاوم هذا التحول الذي يندمج في أفق الحوسبة بشكل متناقض. و مع هذا الانخراط الاصطناعي الجارف للبشرية، أصبح الإنسان رهينة بين يدي الآلات، وبذلك دخل مرحلة شبيهة بالاختبار الوجودي. هذا الوجود لا يُختبر كجماعة بشرية وغير بشرية موحدة بل يختبر ويستغل كمؤشرات ومعلومات وبيانات. وبذلك تتحول القوة إلى سلطة آلية لا تعترف بجوهر الوجود الإنساني، تعترف فقط بالقدرة على التصنيع والإنتاج في عالم صناعي. يمنح أشيل مبيمبي لهذا العصر صفة الوحشية، ويصفه بالعبء الحديدي الكبير في عصرنا، والوزن الجسيم للمواد الخام التي أصبح من ضمنها البشر أيضا. إن تحويل البشرية إلى مادة وطاقة هو المشروع النهائي للوحشية. من خلال تفصيل الطابع التذكاري والعملاق لهذا المشروع، يناشد هذا الكتاب إعادة تأسيس مجتمع بشري متضامن مع جميع الأحياء، والذي لن يحدث إلا إذا قمنا بإصلاح ما تحطم من إنسانيتنا.

تمكن كتاب أشيل مبيمبي الجديد من إلقاء نظرة جديدة على تقلبات العالم المعاصر. بحيث سيكتشف القارئ دراسة فلسفية حقيقية تشتغل على مفاهيم النظرية النقدية ونظرية ما بعد الاستعمار. وبذلك يواصل أشيل مبيمبي، المؤرخ والفيلسوف الكاميروني الذي يعمل في جامعة ويتواتيرساند (جوهانسبرغ)، التفكير في آثار العولمة في أفريقيا، بعد نشر العديد من الأعمال العظيمة منذ أوائل العقد الأول من القرن الحادي والعشرين أبرز فيها كيف تنجز العولمة وتستكمل بطريقة ممنهجة منجزات الاستعمار، مركزا في مؤلفاته السابقة على تسليع العلاقات الاجتماعية، لكن كتابه الأخير يركز وينتقد هذه المرة على وحشية هذه العلاقات. يشير اقتصاد الوحشية في الواقع إلى الهيمنة النهائية على الأرض والكائنات. استعار الكاتب المصطلح من الهندسة المعمارية لتسليط الضوء على التوترات التي تمارس على الأجساد والحياة بشكل عام (ص ٧). «إن العمارة والسياسة هما بالتالي مسألة ترتيب منظم للمواد والأجسام، وهما مسألة كميات وأحجام ومجالات وتدابير وتوزيع وتعديل القوة والطاقة. إن الارتفاع العمودي في موقع متميز هو أحد الآثار الملموسة للوحشية، سواء كان يمارس على الأجسام أو على المواد» (ص ٨). وبهذا المعنى، تظل أفريقيا «مختبراً متميزاً» لدراسة مظهر هذه الوحشية التي يتعرض لها البشر والأرض بشكل عام (ص ٢٤). تشير كلمة الوحشية بالفرنسية إلى صفة «المادة الخام» (ص ٢٦) و «الوحشي» (ص ٤٠) لأن الوحشية، في الواقع، ترتبط بالعلاقات الاجتماعية ارتباطًا وثيقًا من خلال استغلال المواد الخام، وبالتالي الحاجة إلى تبني منظور ما بعد استعماري لفهم التطورات التكنولوجية لهذا الاستغلال الحاصل منذ قرون.

بالنسبة لأشيل مبيمبي، فإن الرأسمالية الرقمية، التي تفتخر بأن للخوارزميات القدرة على حل المشاكل البشرية الكبرى، ليست سوى الصورة الرمزية لهذا السباق المحموم نحو استغلال الإنسان والأرض. «إن هذا التحول الاصطناعي للإنسانية ونظيرتها، ليصبح الإنسان من بين الأشياء والآلات، ربما يشكل المادة الحقيقية لما يسميه البعض اليوم» الاستبدال العظيم «(ص ٢٣). يختلف مبيمبي هنا، مع خطاب الهوية القومية الشائع في أوروبا والذي يعتمد في إيديولوجيته على خطر «الاستبدال الكبير» للسكان الأوروبيين من قبل السكان المهاجرين. وبالتالي فإن الوحشية تتميز بعدم وجود منظور مستقبلي وإمكانية جماعية لتصور عالم مشترك. إنها تعبر في النهاية عن المرحلة النهائية من الليبرالية الجديدة التي تقوي القبضة على الأحياء بتقنيات النانو. يضيف أشيل مبيمبي فارقًا دقيقا لما بعد الاستعمار إلى هذا الصعود العالمي الذي استمر لعدة قرون من خلال تحديث تشخيص هايدغر للأزمة في المجتمعات إبان العصر التقني (ص ٣٨ ؛ ص ٦٥). كانت العولمة، منذ ظهورها الأول في القرن الخامس عشر، بمثابة استغلال للبشر من أجل استعمار أراض جديدة (ص ٣٨-٣٩ ؛ ص ٦١).

بالإضافة إلى ذلك، يُنظر إلى الوحشية على أنها «شكل من أشكال القياس السياسي، إذ تخضع الأجسام المتدهورة، وطاقة وحياة بعض الأنواع لطريقة توظيف النار، من خلال إبطاء احتراقها» (ص ٤٧). وبالتالي، يساعد فصل الفضاءات على استبعاد الأجسام موضوع العنصرية و التي هي غير مرغوب فيها. ويتمثل ذلك في الفضاءات السكنية الهامشية في الضواحي أو بعض الفضاءات المعزولة، بحيث يغيب مفهوم الضيافة وشاعرية العلاقات الإنسانية، ليفسح المجال لبيئة

غير مضيافة وعدائية في بعض الأحيان، حيث تساهم التكنولوجيا في إنشاء نظام للمراقبة واستبعاد السكان غير المرغوب فيهم. إن الرأسمالية تحقق هيمنة مطلقة، لأن كل شيء محسوب: لقد انهارت المقاومة الأخيرة. ومع ذلك، فإن هذا المنطق يهاجم جوهر الإنسانية ويهدد البشرية بأكملها بالانقراض. إن الشرخ الذي يتحدث عنه أشيل مبيمبي، ويجب الانتباه إليه، يتجسد في هزة جوفية لها تداعيات مدمرة وممتدة(ص ٦٨). الوحشية هي في الواقع خروج من العالم الملموس من خلال تحرير الرغبات، بفضل العالم الرقمي. اللاوعي لم يعد مكبوحا كما كان، بل يظهر في علاقة مباشرة بالواقع الافتراضي، ليصبح الهدف هو خلق فقاعات من المتعة حيث لا يظهر الجسم إلا كعارض مصطنع للاستمتاع والخضوع. «تساعد النرجسية الجماعية على ذلك، ليس من خلال اللغة، ولكن من خلال الاستمتاع والجسد، وهنا تحدث المواجهة مع الواقع الحقيقي الذي يناقض تماما التصورات الذهنية» (ص ٩٥).في السابق، مكن الحلم الاستعماري من مصادرة هذا التحرر من الدوافع، لأن المستعمرين أرادوا أن يكونوا قادرين على تحقيق ما لم يتمكنوا من تحقيقه في مجتمعاتهم الأصلية «إن الوحشية في مستعمرة هي إقحام الاختلاف المنهجي في كل من المظهر الخارجي سواء بواسطة مستحضرات تجميل الجسم، والأعصاب، والأعضاء، وبالتالي في بنية الخيال» (ص ١٠٨).

يسير أشيل مبيمبي على خطى المفكر فرانز فانون عندما يفكر في البنية الضارة للاستعمار الذي يعامل المستعمَر معاملة دونية وبذلك يحقق الاغتراب الجذري «يشكل الاستعمار، من وجهة النظر هذه، لحظة عظيمة من الاختراق والتقسيم، و من السيطرة على الأحياء. في حين أن هذا الإجراء من المحتمل أن يفتح الطريق أمام الخسارة، هذا ليس كل شيء. إنها أيضًا فرصة لاختراع الأساطير، وإثارة الحكايات، لكتابة إشارات جديدة على الأجسام و خلط الصور التي نأمل أن تفتح النافذة على الآخر و ما وراء ما تخفيه الشاشة» (ص ١١١).

يتحقق الاستعمار في شكل رغبة اختراق قسري، وباسم هذا الاقتحام القهري تظهر العنصرية وكراهية الأجانب في الدول، لاستبعاد السكان غير المرغوب فيهم (ص ١٨٦). في هذا السياق، تظهر الركيزة العرقية للأمة فجأة للقضاء على أي أمل في الانضمام إلى مجتمع المستوطنين (ص ١٩٢ - ١٩٣). وهكذا، فإن الإيديولوجيات الكونية هي مجرد أوهام لأنها تستند إلى تجريد غير واقعي. «تمامًا مثل المجتمع، لا توجد جمهورية ولا ديمقراطية كماهية أولية مجردة وثابتة يمكن للمرء أن يُخاطر بحياته

باسمها، ومن أجلها» (ص ١٩٢). تنضم هذه الملاحظة في نهاية المطاف إلى فرضية السياسة الاقتصادية على أنها المرحلة النهائية من السيادة، والتي يمكن أن تقرر في المصير الحتمي لمن يجب أن يموت ولمن يجب أن يبقى على قيد الحياة. هناك صلة واضحة بين السياسة الشمولية والوحشية، حيث يمكن النظر إلى الأخيرة على أنها تحيين واستكمال لأهداف السياسة الشمولية.

لا يكتب أشيل مبيمبي في أعماله عن إفريقيا فحسب، ولكن انطلاقا من إفريقيا. إن أفريقيا مثيرة للاهتمام لسببين: فهي من جهة، تأوي الفضيحة التاريخية لهذا الاستعمار الذي يستعبد علاقتنا بالأرض ؛ ومن جهة أخرى، فإنه يعطي الأمل إلى درجة أن هناك مجموعة خيالية من الضيافة والعلاقة بالبشر والتي يمكن أن تشكل مستقبلا واعدا. هذه الملاحظة هي أساس «مبدأ الأمل» الجديد الذي صاغه أشيل مبيمبي(ص ١٧٤.)، والذي لن يؤدي إلى الانهيار الموعود للبشرية (ص ٢٠١). إذا كانت النزعة الجديدة والحيوية المحيطة هي تجسيدات النيوليبرالية، فإن أفريقيا تحمل في داخلها إمكانيات التحرر البشري من القدرية الاستعمارية. «حقيقة أن أفريقيا لم تكن مصدر الانفجار الصناعي، لكن هذا لا يعني أنها لم تخلق أشياء فنية أو أعمال فنية، أو أنها كانت منغلقة على التطور أو الابتكار. لقد فضلت أنماط الوجود الأخرى التي لا تشكل فيها التكنولوجيا بالمعنى الدقيق للكلمة قوة تمزق وانحراف ولا قوة اختلاف وانفصال، بل قوة تعدد ومضاعفة» (ص ٢٢٢).

من خلال معالجة الجدل الصعب حول إعادة المصنفات الفنية إلى الدول الإفريقية، يشجب أشيل مبيمبي مَتْحَفَة أفريقيا، الذي بدأ خلال الغزو الاستعماري الكبير في القرن التاسع عشر. معتبرا أن الاستعادة ليست كافية للإصلاح، فمن الضروري إعادة ربط الأعمال الفنية بالخيال الأفريقي (ص ٢٢٧). «الحقيقة هي أن أوروبا أخذت منا أشياء لا يمكنها أن تعيدها إلينا. يجب أن نتعلم التعايش مع هذه الخسارة. من جانبها، سيتعين عليها تحمل مسؤولية أفعالها، هذا الجزء المظلم من تاريخنا المشترك الذي تسعى دائما إلى تخفيف عبئه الجسيم» (ص ٢٣٢).هل هذه محاولة لمحو الاستعمار بمعنى أن هناك حاجة لفصل قصص المستعمِرين عن المستعمَرين من أجل تفكيك العلاقة بين الضحايا والجلادين؟ في الواقع، يبرز أشيل مبيمبي أن الاستعمار يتضخم بشكل كبير في ضوء العولمة الحالية. مع التقنيات الجديدة، تم إلغاء حقوق الإنسان لصالح المنطق الحوسبي مع استبعاد السكان الزنوج الجدد الخاضعين لإملاءات السلع. إن مصطلح «نيغرو/ الزنجي» لا علاقة له بلون البشرة، بل على العكس، فهو مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالسكان المعرضين للاستغلال التجاري. أصبح العالم مزرعة عملاقة حيث يتم استغلال الموارد المعدنية بطريقة أكثر وحشية من خلال إخضاع الأجساد وانتهاكها. «لأن هذا هو الخيار الأخير: إما الاصلاح أو المأتم. لن يكون هناك هروب إلى أي كوكب خارجي صالح للحياة. ستكون الأرض الواحة الأخيرة التي ستقوم منها «البشرية جمعاء» بالعمل الضخم لتجديد الأحياء. أو سيكون قبرها الكوني، وضريحها الهائل» (ص ٢٣٦). هذا البديل يذكرنا في نواح كثيرة بالملاحظة التي قدمتها مجموعة باربارى في أواخر الأربعينيات من القرن الماضي مع إضافة بعد ما بعد استعماري. وفي السياق ذاته يدق أشيل مبيمبي ناقوس الخطر، لأن تحالف المال والسياسة يقودان العالم إلى حتفه الأخير، إذا لم تستيقظ الضمائر الحية والمفكرة الداعمة للمشترك الإنساني والمدافعة عن المصير البشري المشترك بين العدالة والتضامن والأمل في مستقبل إنساني مسالم.

- الكتاب: الوحشية
- المؤلف: أشيل ميمبي
- دار النشر: دار لاديكوفيرت. فرنسا
- سنة النشر: 2020
- اللغة: الفرنسية
- عدد الصفحات: 246 ص

* كاتب مغربي

الاقتصاد الإسلامي وتطبيقه في الهند: العوائق والفرص

أتش عبد الرقيب

فيرابوراتو عبد الكبير *

الاقتصاد علم مهم، له دور كبير في مصير حياة الناس في العصر الحديث، وعلى المستوى العالمي حتى العهد القريب كان ثمة تياران متصارعان في الساحة الاقتصادية - تيار رأسمالي وتيار اشتراكي. قبل انهيار الكتلة السوفياتية كان التيار الاشتراكي يهيمن على ثلث العالم. كانت الإصلاحات الاشتراكية مثل إلغاء الملكية الخاصة وتأمين البنوك السلاحَ القوي في يدي إنديرا غاندهي رئيسة حزب المؤتمر الحاكم آنذاك. ولكن بعد أفول الاتحاد السوفياتي وغياب الأفلاك التي كانت تدور حولها تغيرت صورة العالم تغيرا جذريا حيث فقدت الهتافات الاشتراكية بريقها أمام أعين الناس. وبعد توقيع أكثر الدول من العالم الثالث معاهدة «جات» (GATT- الإتفاقية العامة للتعريف الجمركية والتجارة) وسباق العولمة وازدياد شدة قبضة تحكم البنك العالمي على الدول النامية غدت الخصخصة هي التوجه الحكومي الحالي في أغلب البلدان في العالم خاصة في الهند. القطاع العام في الهند قد تقللت أهميته بحيث احتلت مكانته الشركات الخاصة العملاقة. الهند دولة اشتراكية، لكن الاشتراكية لا تبقى الآن إلّا في دفتي دستورها؛ حتى إن الأحزاب اليسارية الحاكمة في بعض الولايات الهندية اضطرت إلى أن تعترف بهذه الواقعية بغسل أيديها من المبادئ الاشتراكية وبدأت بلا خجل الاستناد إلى عواتق الشركات الكبرى الخاصة في تنفيذ مشروعاتها. وعدد كبير من البنوك الخاصة عادت عافيتها في المرحلة المتأخرة من تأميم البنوك في عهد إنديرا غاندهي. فأين مكان الاقتصاد الإسلامي والبنوك الإسلامية في الهند والحال هكذا؟

الاقتصاد الإسلامي فكرة تبلورت في القرن الماضي تحت أكناف الحركات الإسلامية مستمدة مبادئه من القرآن والسنة ومن تراث المسلمين، يمكننا أن نجد جذورها في كتب مثل مقدمة ابن خلدون. ولقارة الهند قصب السبق في نشأة هذه الفكرة حيث ساهم العلامة المودودي في هذا المجال بمقالات وتحليلات عديدة في مجلته «ترجمان القرآن»، الصادرة إبان الحكومة البريطانية في الهند، يقارن فيها نظام الاشتراكية والرأسمالية مع ميزات نظام العدالة الاجتماعية في الإسلام، وفي ستينيات القرن الماضي صدر كتابه الضخم حول الربا في جزأين يحلل فيه نظام البنوك التقليدية تحليلا دقيقا ويرسم الخطوط العريضة للبنوك الإسلامية البديلة وشركات التأمين الإسلامي بلغة العصر. وكان ممن أسهم في تعزيز فكرة الاقتصاد الإسلامي علميا في الهند د. نجاة الله الصديقي وكذا د. خورشد أحمد في باكستان من تلامذة الأستاذ المودودي اللذان حازا على جائزة الملك فيصل في مجال الاقتصاد الإسلامي. وفي العالم العربي صدر كتاب سيد قطب تحت عنوان «العدالة الاجتماعية»، وتلاه كثير من الكتب تتناول الموضوع وفي مقدمتها «اقتصادنا» للعلامة العراقي الشيعي باقر الصدر الذي وصفه الاقتصادي الإسلامي الذي تخرج من إحدى الجامعات الغربية د. منذر الكهف بأنه مرجع قيم في مجال الاقتصاد الإسلامي. وفي عام ١٩٦٨ انعقد مؤتمر في نيويورك تحت إشراف اتحاد الطلاب المسلمين في الولايات المتحدة وكندا ليناقش القضايا المتعلقة بالاقتصاد الإسلامي حضره شباب من الباحثين في الجامعات الغربية ومشايخ متخصصون، منهم الدكتور عبد الحميد أبو سليمان الذي صار بعد ذلك مدير الجامعة الإسلامية العالمية في كوالالمبور، والدكتور أنس الزرقا الذي أعان في تأسيس مركز الاقتصاد الإسلامي بجامعة الملك عبد العزيز بجدة، والدكتور محمد صقر الذي صار فيما بعد مدير جامعة غزة في فلسطين. ونجح المؤتمر بأبحاثه ومناقشاته، ونُشرتْ كل البحوث باسم اتحاد الطلاب المسلمين. وفي عام ١٩٧٦ انعقد مؤتمر اقتصادي إسلامي ثان في جامعة الملك عبد العزيز بتوصية من الندوة العالمية للشباب الإسلامي تقديرا لأهمية طرح النموذج الإسلامي في التعامل الاقتصادي. وكان من وراء تنظيمه الدكتور أحمد توتونجي، شارك فيه نخبة من الاقتصاديين الإسلاميين على مستوى العالم ومنهم الراحل الدكتور عيسى عبده من مصر، والدكتور محمد صقر خريج جامعة هارفارد، والدكتور أنس مصطفى الزرقاء خريج جامعة بينسلفينيا، والدكتور محمود أبو السعود -يرحمه الله- من أوائل من كتب الخطوط العريضة في مجال الاقتصاد الإسلامي، وكذلك الدكتور نجاة الله الصديقي من الهند وغيرهم. واهتم منظمو المؤتمر قبل انطلاقة أعماله بإعداد مسح شامل لأدبيات الإسلام الاقتصادية يحاولون استقصاء كل ما كُتب في تاريخ الاقتصاد الإسلامي في اللغات المختلفة التي تتقاطع مع الفكر الإسلامي - الإنجليزية والفارسية والأردية والتركية فضلا من العربية، فجمعوا مادة ضخمة ووضعوها بين أيدي المؤتمرين، وقد بهرهم هذا المجهود وكذا الفكرة، وأفادوا منها كثيرا.

الجهود المخلصة المبذولة مثل هذه غدت روحا دافقة ودافعة وقوة جامعة لحراك الاقتصاد الإسلامي حتى بدأت تؤتي ثمارها في شكل بنوك إسلامية وشركات تأمين إسلامي في مختلف أنحاء العالم العربي والإسلامي مما أدى إلى توجه البنوك التقليدية لفتح شبابيك خاصة لحسابات غير ربوية لجذب ودائع من شريحة كبيرة في المجتمع الإسلامي الذين لا يحبون التعامل المالي المبني على الربا. هكذا أصبحت الفكرة التي كانت تعد من أحلام اليقظة حقيقة ملموسة. ولو كانت البنوك غير الربوية بدأت كفكرة جادة في قارة الهند إلا أنها تحققت في الدول الإسلامية. وفي الحقيقة إن جذور المصارف الإسلامية تعود إلى عام ١٩٦٣ حين قام الدكتور أحمد النجار، رئيس اتحاد البنوك الإسلامية السابق، بتأسيس نظام ادخاري بإقليم الدقهلية في مصر غير أنه كان بمثابة تمويل أصغر (Micro finance) لمساعدة الفلاحين وغيرهم من ذوي الدخل المحدود بتزويدهم بقروض حسنة وبتوفير التسهيلات لادِّخار دخلهم الزهيد فيها. (وكان ذلك قبل قيام محمد يونس الحائز على جائزة نوبل بتأسيس بنوك لتمويل أصغر في بنجلايش). وفي أوائل السبعينيات كان قد قابل هذا الكاتب الأستاذ أحمد النجار حين قام بزيارة في كيرلا في طريق عودته من بنجلاديش بعد مشاركة في اجتماع استشاري بمناسبة تأسيس بنك إسلامي هناك. وكان لا يحب أن يسمي النظام الذي قام بترتيبه في مصر بنكا بمعناه الاصطلاحي. ترعرع هذا النظام في مصر على نطاق واسع ولكن الحكومة آنذاك شمت فيه السياسة حتى عرقلت دون توسعه فلم يلبث في البقاء مدة طويلة. وفي عام ١٩٧١ تم إنشاء مصرف ناصر الاجتماعي بالقاهرة يتصرف في مجال جمع وصرف الزكاة وتوفير القروض الحسنة ثم تأسس بنك التنمية الإسلامي في جدة عام ١٩٧٥ وتلاه نفس العام مصرف دبي الإسلامي الذي قام بتأسيسه سعيد أحمد لوتاه الذي توفي في يونيو الماضي ثم سلسلة من مصرف فيصل الإسلامي في السودان عام ١٩٧٧ وفي مصر عام ١٩٧٨ وبيت التمويل الكويتي في نفس

العام، وفي عام ١٩٧٨ تم إنشاء المصرف الإسلامي الاستثماري الأردني ثم المصرف العربي الدولي عام ١٩٧٩ ، وخلال الفترة الماضية حاولت مجموعة من الدول الإسلامية مثل السودان وباكستان وإيران لتحويل نظامها المصرفي بالكامل إلى النظام الإسلامي، حتى في بعض الدول الغربية تقدمت بنوك تقليدية لاختبار هذا النظام الجديد. ففي الوقت الذي ينكر فيه البعض وجود نظام اقتصادي إسلامي بالمعايير الاقتصادية المستقرة في الفكر الغربي، ويرى أنه حتى إذا وُجد سيكون اقتصاد تكية تقدم بعض الكُتاب في بلاد الغرب ليكشف عن الجوانب الإيجابية من هذه الظاهرة الجديدة. وفي مقالة كتبها الكاتب الأمريكي بيدهام في مجلة «الإكنوميست» وصف الاقتصاد الإسلامي بأنه اقتصاد فريد يمكن للآخرين أن يجدوا فيه شيئا ثمينا، ويقول إن التصور الإسلامي للحياة الاقتصادية في غاية التميز وفي منتهى السمو الأخلاقي وليس أقل فعالية من أي شيئ قدّمه الغرب المادي المتهوّر. ويقول أيضا «لو عرف الاقتصاديون الغربيون المزيد عن القرآن، لفهموا قيمة الاقتصاد الإسلامي،» يقول ذلك في معرض رده على هنتينغتون، صاحب مقولة صراع الحضارات، ويرى بيدهام أن الشيئ يمكن أن يكتمل بنقيضه دن أن يلغيه. وقد أصبح الاقتصاد الإسلامي الآن مادة تدرس في بعض الجامعات.

خلال أزمة الرهن العقاري التي واجهتها البنوك في أمريكا عام ٢٠٠٨ جرت مناقشات حثيثة عن ضرورة البحث عن بديل للبنوك التقليدية حيث صرح رئيس منتدى الاقتصاد العالمي «بأننا الآن على شفى حفرة من الانهيار وإلاّ علينا أن نُبدل سياساتنا الحالية للتوصل إلى بديل سليم» كما ينقله المؤلف في مقدمة هذا الكتاب، وفي هذا الصدد يشير أيضا إلى قول الخبير الزراعي الهندي المشهور على المستوى العالمي الدكتور «سوامي نادهان» الذي يفيد بأنه لو كانت الحكومة قد اهتمت بشأن بنوك إسلامية مبنية على نظام غير ربوي لما كان الفلاحون قد انتحروا بسبب أعباء ربوية في «فيداربها» في ولاية «ماهاراشترا». ويطرح الكاتب السؤال على الجهات المختصة أنه إذا كانت المدن الكبيرة مثل لندن وباريس وطوكيو وهونكونغ وألمانيا وسويسرا قد أصبحت مراكز مالية إسلامية فما المانع من كون مدن مثل ممباي وكوشين كذلك؟ ويقول إن كثيرا من أصحاب الدخل المحدود يودعون الفائض لديهم في البنوك التقليدية لتضيف إلى رأسمالها ولكن الأثرياء هم الذين يستفيدون من هذه الأموال المتراكمة، وقد رأينا أن كثيرا من أصحاب الشركات العملاقة لاذوا بالفرار إلى خارج البلاد دون أن يسددوا ما عليهم حيث تم شطب قروضهم من سجلات البنك. وتُلاحظ الحقائق التي اكتشفتها «لجنة ساتشار» المكلّفة أيام حكومة مان موهان سينغ للتحقق عن أسباب تخلف المسلمين في المجال الاجتماعي والاقتصادي والتعليمي ولتقديم مقترحات لحلها. وبموجب تقرير هذه اللجنة فإن كثيرا من المناطق التي يكتظ فيها المسلمون لا توجد فيها بنوك

لكي يستفيدوا منها. وفي جانب آخر، فإن المسلمين الذين يتعاملون مع البنوك التجارية يبتعدون أغلبهم عن استلام فائدة ودائعهم، وبموجب تقرير من البنك الهندي توجد في البنوك بلايين متروكة في هذا الحساب.

كما كان في مصر وفي الهند أيضا بدأت فكرة البنك الإسلامي في شكل صناديق غير ربوية على مستوى تمويل أصغر لأهداف محددة مثل توفير القروض الحسنة للمحتاجين على رهن الذهب. وكانت هذه الصناديق ضمن المشروعات التي تبنتها فروع الحركة الإسلامية في الهند محليا لتوسيع قاعدتها الشعبية، وكانت هناك تقارير أخبارية تفيد بأن بعض السيخ في شمال الهند جذبتهم هذه المشروعات فبدؤوا تنفيذها لرفع مستوى حياة الفقراء منهم. ولكن تحويل هذه الصناديق إلى نظام بنوك تجارية حديثة أو شركات استثمارية لم يتمكن من تحقيقه بسبب العوائق القانونية الموجودة. القوانيين الحالية لا تسمح بتشغيل بنوك أوشركات تأمين أو شركات استثمارية إلاّ إذا كانت مبنية على الربا. وقد خصص المؤلف فصولا في هذا الكتاب ليشرح الجهود الجهيدة التي بُذلت في سبيل إزالة العوائق القانونية أمام تشكيل بنوك وشركات تأمين واستثمارات مبنية على مبادئ غير ربوية مشيرا إلى نماذج تعمل جيدة ومؤثرة جدا في بعض الدول الغربية. وكان للمركز الهندي للتمويل الإسلامي في نيو دلهي الذي هو أمينه العام والذي تم تأسيسه لرفع مستوى حياة المسلمين في الهند دور كبير في لفت نظر الجهات الرسمية إلى ضرورة تأسيس البنوك الإسلامية. ويُلاحظ أن المؤلف تاجر ناجح ذو خبرة في صناعة الجلود وماهر على مستوى عال في تكنولوجية الجلود. منذ أكثر من عقدين يتردد إلى مكاتب وزارة المالية والبنك الهندي الاحتياطي لكي يتم تعديل القوانين المانعة من البنوك الإسلامية في البلاد حتى يتمكن من فتح شبابيك إسلامية في البنوك التجارية. وقد ناقش هذا الموضوع مع كبار المسؤولين ليُقنعهم بضرورة هذه الإجراءات. ونتيجة لمساعيه الحميدة فإن اللجنة العليا للتخطيط برئاسة «راجهو رام راجان»، محافظ البنك الاحتياطي السابق، أدرجت توصيتها لفتح البنوك الإسلامية ضمن مقترحاتها المقدمة للحكومة المركزية. وكذلك قدم الكاتب عريضة أمام اللجنة المختارة البرلمانية لتعديل قانون التأمين يشرح فيها فوائد التكافل الإسلامي. ولكن للأسف كل المقترحات أصبحت متروكة في الثلاجة دون أن تُتخذ إجراءات نحو تطبيقها.

لما اتخذت حكومة كيرلا اليسارية قرارها لتشكيل شركة استثمارية باسم البركة للخدمات المالية رفع النائب البرلماني من حزب بي جيه بي الحاكم «سوبراهمانيا سوامي» دعوى ضده إلى المحكمة العليا في ولاية كيرلا، وادّعى أنها شركة إسلامية وقد قامت الحكومة بتشكيل شركة مبنية على مبادئ الشريعة ضد مبادئ الدستور العلماني. حين ذاك لعب مؤلف هذا الكتاب وراء الكواليس دورا مهما للدفاع عن القضية بتزويد المحامين بمعلومات كافية عن طبيعة المؤسسات المالية التي تعمل على مبادئ الشريعة، وأخيرا رفضت المحكمة دعوى سوامي. وقد خصص المؤلف في الكتاب فصولا تلقي الضوء على تفاصيل هذه الوقائع. الكتاب وثيقة قيمة تحتوي معلومات وافرة عن الحملة التي قام بها المركز الهندي للتمويل الإسلامي في سبيل ترويج المفاهيم الإسلامية المتعلقة بمصاريف غير ربوية. ويحتوي أيضا مقالات أخرى تشرح ملامح الاقتصاد الإسلامي مثل نشاطات بيوت الزكاة ودورها الفعال التي تقوم بها في تنمية المجتمع الإسلامي في مختلف أنحاء العالم شاملة ولاية كيرلا، وكذالك تاريخ سوق المدينة التي كانت موجودة في العهد النبوي ونشاطات المركز الهندي للتمويل الإسلامي وغيرها. والكتاب بالرغم من أهميته الوثائقية يفتقر إلى تحرير جيد؛ حيث يوجد فيه تكرار في شكل ممل ومنفّر. ويشير المؤلف في المقدمة إلى أن هذا التكرار طبيعي بما أن بعض المقالات محاضرات ألقيت في أماكن مختلفة، ولكن أن يتكرر مضمون مقال بكامل نصه في مقال آخر تحت عنوان مختلف ليس طبيعيا، ويتضح من اعتراف المؤلف أنه تساهل متعمد لا يُغتفر.

- العنوان: «الاقتصاد الإسلامي وتطبيقه في الهند: الفرص والعوائق».
- المؤلف: إتش. عبد الرقيب.
- الناشر: المركز الهندي للتمويل الإسلامي، نيودلهي، 2019م.
- عدد الصفحات: 304 صفحات.

* مستعرب هندي

سلطنة عمان: أساطير وحكايات وحقائق تاريخية... إيغور سينتشينكو

فيكتوريا زاريتوفسكايا *

يقول الرحالة والمستعرب البريطاني الشهير سير ويلفريد ثيسيجران أسوأ ما في الوحدة هو أن تكون وحيدًا وسط الحشود، وبأنه شعر بالوحدة في المدرسة وهو طفل وفي المدن الأوروبية التي زارها فيما بعد، ولكنه لم يشعر بها في أي مكان بين العرب، وفي شبه الجزيرة العربية لم يكن وحيدا مطلقا.

صدر في ربيع هذا العام الكتاب الأخير من سلسلة الأعمال التي عكف على تأليفها المؤرخ والمستشرق الروسي إيغور سينتشنكو حول دول الخليج العربية من بينها: «الجزيرة العربية: التقاليد والأخلاق»، «الخليج العربي: نظرة عبر القرون»، «الإمارات العربية المتحدة: وجهاً لوجه مع عجائب الدنيا الجديدة»، «شبه الجزيرة العربية: الماضي والحاضر»، «شبه الجزيرة العربية: مهد العرب»، «عرب الجزيرة العربية. مقالات عن التاريخ، الإثنوغرافيا والثقافة»، «شبه الجزيرة العربية: لوحات للتاريخ»، «الكويت: فسيفساء من القرون»، «الإمبراطورية الروسية، الجزيرة العربية والخليج العربي: مجموعة من القصص» «اليمن: أرض الممالك الأسطورية وشعوب العالم القديم»، «مملكة البحرين: وجوه التاريخ» .وها هو آخر العقد يصدر تحت عنوان:«سلطنة عمان: أساطير وحكايات وحقائق تاريخية»... فإن كانت مرتبته الأخيرة من حيث التسلسل (حتى الآن) إلا أننا لا نظن أنه الأخير من حيثالأهمية والجودة والتشويق.

كُرست معظم صفحات الكتاب لتاريخ العلاقات الدبلوماسية بين عمان وإنجلترا والولايات المتحدة وفرنسا وروسيا حيث خصص لها أربعة فصول متوالية. وفي تناوله للعلاقات التي ربطت روسيا وعُمان من جانب، وبريطانيا وأمريكا وفرنسا من جانب آخر، نجد أن المؤلف يتجنب اجترار المعلومات الشائعة والمتداولة في المصادر الغربية، فيسعى إلى إظهار وجهة النظر الروسية لمراحل وأحداث تاريخية مختلفة. ولهذا الغرض يكشف المؤلف ملاحظات أرشيفية للموظفين الدبلوماسيين لدى الإمبراطورية الروسية، ويسوقمقاطع من مذكراتهم الخاصة، وينفتح على تقييماتهم وانطباعاتهم الشخصية. أما محور البحث فيرتكزعلى فترة أواخر القرن التاسع عشر - أوائل القرن العشرين حيث يجد القارئ ما يشبع فضوله من تفاصيل، في حين كان نصيب النصف الثاني من القرن العشرين، معلومات متفرقة ومقتطفات موجزة.

يعتمد المؤلف في وصفه وتقييمه لجانب من مادة كتابه على الأوراق التي تركها القنصل العام للإمبراطورية الروسية في بغداد أليكسي فيدوروفيتش كروغلوف (١٨٦٤-١٩٤٨)الـــذي قـدم معـلومـات موسعة ومـواد مرجعية حول مسقط في وقته، فيشير إلى أن الاهتمام المتزايد للسلطات البريطانية بمسقط كان مشترطا بالمصالح طويلة الأجل للإمبراطورية في تلك المنطقة من العالم. وكان هدف إنجلترا، كما يؤكد القنصل الروسي،استغلال المناطق الشاسعة في الساحل العربي الخاضعة لعمان وذلك لفرض هيمنة الإمبراطورية البريطانية على كامل الممرات البحرية في الخليج العربي، وكذلك للتغلغل في أراضي الجزيرة العربية الساحلية، ومن هناك إلى وسط شبه الجزيرة العربية. فسمى كروغلوف هذه الفترة من نشاط الإمبراطورية البريطانية بأنها سعي بريطاني سلمي تجاه مسقط، فقد كانت إنجلترا مدركة لأهدافها وغاياتها في تلك المنطقة، ورأت أن الوسائل السياسية والدبلوماسية تجاه عمان هي الأوفر حظا لتحقيق سياستها. وفي رأيه فقد حدثت تغييرات ملحوظة في أنشطة إنجلترا في الجزيرة العربية الساحلية عام١٨٩٥ وذلك مع بدء مرحلة سياسة القوة الصريحةوالهادفة إلى إطاحة تركيا وإبعادها عنشبه الجزيرة. ويرى قنصل الإمبراطورية الروسية في بغداد أن تصرفات البريطانيين مع ظهور قطع من الأسطول الروسي، ومراكب التجار الروس في المياه العربية، قد شابها نوع من الانفلات العصبي خشية المنافسة.

وفي سياق مختلف يخلص الباحث إيغور سينتشينكوإلى أن تطور التعاون بين روسيا وفرنسا على نطاق الخليج العربي ينطلق من رؤية باريس في أن: «روسيا مؤيدة للأفكار الفرنسية وسياستها لمنع بريطانيا للانفراد بالخليج العربي (...)وقد كانت روسيا مهتمة بفرنسا (...) وأصبح التجار الروس الذين بدأوا العمل في أسواق الخليج العربي مفوضين لتمثيل مصالح التجار الفرنسيين الذين وصلوا إلى المنطقة قبل الروسبكثير. ووفقًا للدبلوماسيين الروس، فقد دافع الفرنسيون عن مصالح التجارة الروسية هناك (...)ومع ذلك، فإن تفاهمات سانت بطرسبرغ (عاصمة روسيا القيصرية) وباريس للعمل في الخليج العربي كثنائي مضاد للطموحات الإنجليزية لم تجد لها صدى في أرض الواقع» (:ص٥٠٤). ولكن وبشكل عام فإن: «نجاحات الفرنسيين في تطوير العلاقات مع سلطنة عمان، بحسب الدبلوماسيين الروس، لم تتجاوز بكثير نجاحات الروس، وذلك على عكس أنشطة باريس في بلاد فارس التي كانت واعدة للغاية (:ص٤٨٢).

إن الفصل الأكثر ديناميكية في الكتاب يتعلق بالفصل المكرس للعلاقات العمانية الأمريكية، وقد أضفى وصول السفينة سلطانة إلى الساحل الأمريكي عام ١٨٤٠، وما ساقه المؤلف من تفاصيل دقيقة لتلك الرحلة التاريخية، والاحتفاء الذي استقبل به رجال الأعمال الأمريكيين السفينة، وموقفهم الودي تجاه عمان البعيدة، كل هذا أضفى على فصل الكتاب جوا من الظرف والتشويق.

ولا يقل عن ذلك كياسة، الفصل المُكرس لمذكرات معاصري تلك الفترة حينما شرعت روسيا في اتخاذ الخطوات الأولى لإقامة علاقات دبلوماسية مع عمان (والتي كللت بالنجاح كما هو معروف في منتصف الثمانيات من القرن الماضي فقط، وذلك بمشاركة الدبلوماسي والمستشرق الروسي المعروف يفجيني بريماكوف).

يعترف الباحث الروسي،ولأسباب موضوعية عديدة، بعجز روسيا عن تزويد عُمان بنفس شروط التعاون التي ربطت السلطنة بإنجلترا، وبالتالي فقد ضيّق ذلك وقصّر من التواجد الروسي في الخليج. في هذا السياق نجد الإشارات التي أوردها المؤلف وتعود إلى مواد إرشيفية أعدها القنصل العام الروسي في بندر بوشهر،

نيكولاي باسيك عام ١٩٠٥ حيث كتب يقول: كانت تزور مسقط أكثر من ١٤٠ سفينة أجنبية كل عام. الغالبية العظمى منها تحمل العلم الإنجليزي و٨ فقط تحمل العلم الروسي (ص: ٤٣١).

ويستعرض لنا المؤلف الموقف الروسي حيال النزاع والصراع الأنجلو - فرنسي في شبه الجزيرة العربية، موضحا أن الدبلوماسية الروسية كانت تراقب عن كثب تصرفات البريطانيين في المنطقة، وتوجه إدانتها لها، ولكن من غير أن تتخلى عن موقفها المحايد، كما تغلبت بمهارة على الفخاخ التي وضعتها العبقرية الدبلوماسية الألمانية، وسعيها للإيقاع بين روسيا وفرنسا من جانب، ودفع روسيا للتصادم مع إنجلترا من جانب آخر.

ومن المعلومات الظريفة التي نثرها المؤلف في كتابه، نعثر على قصة أحد الأطباء الروس الذين عملوا في خدمة السلطان العماني في زنجبار. يقول سينتشينكو: «في ثمانينيات القرن التاسع عشر عمل المواطن الروسي ميخائيل غريغوري طبيبا في زنجبار وذلك في عهد سلطان زنجبار.ومن وثائق أرشيف الوزارة الخارجية للإمبراطورية الروسية نتابع أنه ولد في كيشينوف المالدوفية، ونشأ على نفقة الحكومة في جنوب روسيا، ثم درس في مؤسسة تعليمية عسكرية للطب الجراحي في سانت بطرسبرغ العاصمة، ثم شارك في حملات للجيش الروسي في تركستان وفي الحرب ضد تركيا (...)بعد دخول قواتنا مدينة فارنا البلغارية، هجر مختبئًا من الشرطة الذين كانوا يبحثون عنه لانتمائه إلى الدوائر السياسية المعارضة(...)هرب إلى القاهرة ومن هناك - عبر الحجاز ثمإلى زنجبار»(ص: ٥٣٣)

وهكذا، وبما أن عمان تاريخا قوة بحرية عظيمة، فمن الطبيعي أن تكتظ صفحات الكتاب بالبحر. يصف المؤلف الصعوبات التي واجهها الدبلوماسيون الروس لدى حكومة بلادهم لفتح الخط البحري الأول بين روسيا وعمان، وخط الركاب والتجار الذي يصل ميناء أوديسا في البحر الأسود بموانئ الخليج العربي، والذي أصبح فيما بعد أداة مهمة بيد الإمبراطورية الروسية لتنفيذ خططها التجارية في دول المنطقة. كما يصف المؤلف محاولات الأطقم البحرية الروسية إثارة إعجاب الحكومة العمانية بالأسطول الروسي. ويورد الكاتب أن الخطوط التجارية الروسية لم تقتصر على التجار الروس وحدهم، فها هي برقية القنصل الروسي نيكولاي باسيك من بوشهر في ٢٢ يناير ١٩٠٥ يخطر فيها سلطات بلاده بالآتي: «إن سلطان مسقط راغبٌ في إرسال ستة من الإبل مع سواقها إلى مكة المكرمة كهدية،وقد

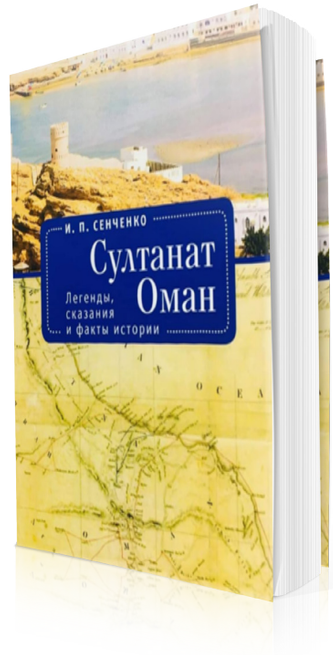

أرسل إلى قبطان السفينة الروسية «تروفور»، التي كانت ترسو في البصرة،يخبره بأن يعرّج على مسقط في رحلة العودة ويأخذ الجمال معه ويسلمها في جدة».

وبحفاوة بالغة ووصف دقيق يحدثنا المؤلف عن وصول السفن الروسية إلى ميناء مسقط كسفينة «جيلاك» التي رست عام ١٩٠٠ ، وسفينة «فارياج» عام ١٩٠١ والتي اعتبرت درة الأسطول التجاري الروسي آنذاك ومفخره التكنلوجيا الروسية لصناعة السفن حيث زودت بخمسة مضخات للوقود، وسفينة «آسكولد» عام ١٩٠٢وسفينة «بوياري» عم١٩٠٣. كما رسم الكاتب تفاصيل تلك الزيارات ووصف الانطباعات التي أثارها الحاكم العمانيلدى ممثلي روسيا، والمعاملة الرفيعة التي وجدوها في قصر السلطان حيث تمت استضافتهم، ونوع الاستقبال الذي أجاب به الروسدعوة السلطان على ظهر سفينتهم، والهدايا التي تبادلها الطرفان، كما أورد قائمة بالبضائع التي تم التباحث فيها للاستيراد والتصدير بين الجانبين.

ولا يقل أهمية للقارئ الروسي الجزء الذي يسردفيه الباحث تاريخ عمان من العصور القديمة حتى يومنا الراهن. وتكمن أهمية هذه المادة في أنها تعرض التاريخ العماني باللغة الروسية بتنظيم منهجي وتسلسل تاريخي للمرة الأولى، ناهيك عن ضخامة المادة حيث بلغت صفحات الكتاب أكثر من ٧٥٠ صفحة، مما يمنح شمولا بحثياومتانة علمية كبيرة.

وفي جولة سريعة على أقسام الكتاب نذكر الجزء التاريخي المقسّم إلى عدة فصول: يوميات الذاكرة (عمان في أعمال الباحثين البارزين في شبه الجزيرة العربية،والمؤرخين المشهورين، والجغرافيين وجامعي الآثار العربية، وفي مذكرات البحارة والمسافرين، وفي تقارير وملاحظات الدبلوماسيين)؛ صفحات من حوليات الأزمنة (الآثار العمانية)؛ دخول عمان الإسلام. أعماق الماضي (عمان عشية دخولها الإسلام وحياة البلاد في زمن الخلفاء الراشدين)؛ الخلافة الأموية وعلاقتها بعمان (٦٦١-٧٥٠)؛ عمان في زمن الخلافة العباسية (٧٥٠-١٢٥٨) (شخصيات وحقائق)؛ عهد النباهنة في عمان (١١٥٤-١٦٢٤) (خط الحياة)؛ عمان في عهد اليعاربة (١٦٢٤-١٧٤٩) (المسار في التاريخ)؛ عُمان والبوسعيد.

ولن يفوت أي باحث روسي يخوض في الكتابة عن عمان ذكر الرحلة التاريخية التي قام بها الرحالة الروسي الشهير أفاناسي نيكيتين إلى هرمز ومسقط بين أعوام ١٤٦٨ -١٤٧٥ حين لم يكن ثمة علاقات بين روسيا وعمان؛ ففي كتابه الموسوم «عبور البحور الثلاثة» وهو مذكرات وضعها الرحالة عند وصوله بلاده عام ١٤٧٥ يقول: «إن هرمز ملاذ بحري رائع ، يفدها الناس من كل مكان، وهنا تجد بضائع من كل بقاع العالم».

الجزء الأخير من الكتاب حمل عنوان «عرب عمان» ويتطرق فيه الكاتب إلي حياة العمانيين وعاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم. إن معرفة المؤلف لهذا الجانب مذهلة بسعة نطاقها، فنجده مطلعا على طقوس تضحيات الصيادين والبحارة، والملابس التقليدية لسكان مسندم الذين يرتدون الجراز بدل الخنجر، ومعايير الحياة في الصحراء،إلى جانب معرفته الواسعة بالخارطة القبلية العمانية وتشعباتها. أخيرا فإن اللازمة التي ظل إيغور سينتشينكو يرددها مرارًا وتكرارًا هي أن السمات الرئيسية للعمانيين تكمن في تضامنهم وحسن ضيافتهم وكرمهم وشجاعتهم والتزامهم بالعهود.

- الكتاب: سلطنة عمان، أساطير وحكايات ووقائع تاريخية.
- المؤلف: إيغور سينتشينكو.
- دار النشر: آليتيا/ سانت بطرسبورغ/ 2020.
- مكان الإصدار: سانت بطرسبرج
- اللغة: الروسية
- عدد الصفحات: 758

* أكاديمية ومستعربة روسية

الصين مختلفة بالتأكيد

شيه رونغ بين

حسام المغربي *

توقع العالم السياسي الأمريكي فرانسيس فوكوياما في أطروحة بعنوان «نهاية التاريخ» عام ١٩٨٩، حتمية سيادة مفهوم الديمقراطية الليبرالية الغربية؛ باعتبارها الشكل النهائي لحكومات العالم. ولاقت وجهة نظره هذه صدى واسعا بعد انضمام عدد من البلدان إلى صفوف الديمقراطيات الغربية. إلا أنَّ الصين صمدت أمام هذه الموجة الغربية ونجحت في الحفاظ على نظام حكمها الخاص (الاشتراكية ذات الخصائص الصينية).

ومع الصعود الكبير في الاقتصاد الصيني خلال العقود الأربعة الأخيرة، خرجت عشرات الدراسات المبشرة بحتمية الصدام المستقبلي بين الصين والولايات المتحدة، كان أشهرها «فخ ثيوسيديدز» التي وصفت تاريخيا حالة تهديد أثينا من قبل قوة صاعدة (الصين حاليا) بإزاحة أسبرطة، وهي القوة المهيمنة (الولايات المتحدة حاليا) على الساحة الدولية. هذه النظرية التي أعادها البروفيسور غراهام آليسون من جامعة هارفارد إلى الأذهان، جاءت لتحذير العالم من ضرورة الاستعداد لصدام لا يمكن تجنبه بين الولايات المتحدة والصين.

ويرى المتابع أنَّ إستراتيجية الأمن القومي الأمريكي بداية عهد الرئيس الحالي دونالد ترامب أشارت صراحة إلى أن الصين تسعى لتحدي قوة واشنطن ونفوذها ومصالحها، في محاولة للإضرار بأمن ورخاء الشعب الأمريكي. كما اعتبرت استراتيجية الدفاع الوطني الصادرة من وزارة الدفاع الأمريكية منتصف عام ٢٠١٨ بوضوح الصين «منافس استراتيجي يسعى لتحديث قواته المسلحة لضمان سيطرته الإقليمية على المحيط الهادي وجنوب آسيا، ومقارعة نفوذ الولايات المتحدة العالمي».

وعلى الدوام، تؤكد الصين محورية «الصعود السلمي»؛ باعتباره النهج خلال مسيرة إدارتها لعملية الصعود اعتمادا على تطوير الذات (السوق المحلية والقوى العاملة واحتياطي رأس المال)، والمساهمة في الحفاظ على الأمن والسلم العالميَّين، والتمسك بسياسة الانفتاح وتطوير العلاقات الاقتصادية والتجارية مع جميع الدول الصديقة على أساس المساواة والمنفعة المتبادلة.

ويقدم كتاب «الصين مختلفة بالتأكيد مختارات من تقارير جلوبال تايمز» لمؤلفه شيه رونغبين نائب رئيس تحرير صحيفة جلوبال تايمز الصينية، محاولة جريئة لفهم مكانة الصين في العصر الجديد على الساحة الدولية من خلال عرض مجموعة مختارة من المقالات تقع في ثلاث فئات وهي «تقارير غلوبال تايمز» و«استطلاع آراء صحفيين» و«مقابلات مع كوكبة من الخبراء»، تسلط جميعها الضوء على نظرة صناع القرار والخبراء في الغرب بشكل خاص والعالم بشكل عام للتغيرات التي طرأت على الصين خلال العقود الأخيرة تحت قيادة الحزب الشيوعي الصيني، وفهمهم لتأثير الصين على الصعيد العالمي، والخطوات التي اتخذتها وتلك التي تخطط لها من أجل تحقيق إنجازات كبرى تحقّق هدف تعزيز وتحديث نظام الحكم في البلاد. هذا إلى جانب عرض الحلول الصينية للمشاكل العالمية ومدى نجاعة تطبيقها.

وينقسمُ الكتاب إلى أربعة فصول؛ هي: «التغيير الشامل» و«جولة حول العالم لإدراك تأثير الصين» و«آراء مبعوثين أجانب حول تجربة الصين»، وأخيرا «العلاقات الصينية الأمريكية».

ويعرف شيه رونغ بين (مولود في عام ١٩٧٥) مؤلف الكتاب والحاصل على درجة الماجستير في القانون الدولي والدبلوماسية من جامعة الشعب العريقة في الصين، بكتاباته الجريئة التي يطرح من خلالها وجهة نظر تجمع بين الشأن الصيني الداخلي وعلاقة بكين بالعالم الخارجي. وكان شيه قد انضم لأسرة عمل صحيفة الشعب اليومية في عام ١٩٩٨، وعمل مراسلا لها في يوغوسلافيا بين الفترة من أكتوبر ١٩٩٩ إلى أغسطس ٢٠٠٢، بعد القصف الذي تعرضت له السفارة الصينية لدى بلغراد. وبعد عودته إلى الصين التحق بالعمل في صحيفة غلوبال تايمز، ليشغل منصب نائب رئيس تحريرها في عام ٢٠١٠.

وكصحفي عمل لأكثر من ٢٠ عاما، امتلك تشه دراية واسعة بالشؤون الدولية مع تغطياته الواسعة خارج البلاد والمقابلات التي أجراها مع المسؤولين الأجانب والدبلوماسيين لدى الصين. وكتب العديد من البحوث حول قضايا شملت «المنظور الصيني في وضع دولي معقد» و«الحزام والطريق» و«تطوير الشركات الصينية» و«الطريق الجديد لوسائل الإعلام التقليدية». وخلال العامين الماضيين، نشر كتاب «أساءنا الحكم على الصين» وكتاب «متفائلون بشأن الصين».

نظرة يابانية للإصلاح والانفتاح الصيني

وفي الفصل الأول من كتابه، يستعرض شيه آراء شهود عيان حول التطور المذهل الذي حققته الصين خلال مسيرتها بعد تأسيس جمهورية الصين الشعبية، ومن بين هؤلاء تاتسويا هيراراي، الرئيس فوق العادة لإدارة تكنولوجيا المعلومات في الحزب الديمقراطي الليبرالي الياباني، الذي زار مدينة شنتشن التابعة لمقاطعة قوانغدونغ جنوب الصين في أغسطس ٢٠١٨. وكانت قد أبهرته بيئة الابتكار وحداثة البنايات والطرق والتطوّر التقني الذي تعيشه المدينة.

وبعد أكثر من عام، عبّر السياسي الياباني يوتشي تاكاو خلال أحد الاجتماعات قائلا: «شاهدت خلال زيارتي لمدينة شنتشن تقنيات الدفع عبر الهاتف المحمول وخدمة الدراجات التشاركية وقطارات السكك الحديدية فائقة السرعة والطائرات المسيّرة». وأوضح أنه شعر على نحو عميق بـ«الصين الحديثة» في هذه المدينة، كما تبدّلت وجهة نظره تجاه الصين تماما، فقد جعلته الرحلة إلى هذه المدينة الجنوبية يشعر بأن الوقت قد حان للتفكير بجدية في كيفية التعامل مع الصين. ووصف شنتين بأنها «مدينة تغلي من السرعة» وتعد رمزا للابتكار والتطور على المسرح العالمي.

وفي يناير ٢٠١٨، قال دايجيرو ياماجي نائب وزير الاقتصاد والتجارة والصناعة الياباني السابق رئيس هيئة إستراتيجية الذكاء الاصطناعي التابعة للحزب الديمقراطي الليبرالي في خطاب له بالعاصمة طوكيو «إن الوقت قد حان للاندماج الكامل مع الصين». معتبرا أن مدينة شنتشن أصبحت قاعدة للابتكار في العالم بالقدر الذي قد يتفوق على وادي السيليكون الأمريكي، وعلى اليابان التوقف عن التفكير في منافسة الصين، وتركيز جهودها حول كيفية الاتحاد معها.

الحكمة الصينية خلف حبة أرز

في الفصل الثاني تناول الكاتب مفهوم «التأثير العالمي للصين» من خلال عرض أمثلة للحلول الصينية لبعض المشكلات التي عانت وما زالت منها دول مختلفة حول العالم. ويضرب الكاتب مثالا للتعاون الصيني الإماراتي في مجال الزراعة، حيث نجح الخبراء الصينيون في زراعة الأرز في صحراء الإمارات؛ الأمر الذي حاز على ثناء وسائل الإعلام العالمية، والتي اعتبرته مساهمة فريدة للصين في ضمان الأمن الغذائي العالمي من خلال رفع قدرة المناطق الصحراوية على إنتاج الحبوب.

وكانت صحيفة «ديلي تليجراف» البريطانية قد تناولت قضية الأمن الغذائي والدور الصيني العالمي، حيث أشارت في تقريرها إلى أنه في الصحراء القاحلة خارج إمارة دبي، بحث العلماء الصينيون كيفية زراعة حقول الأرز المقاومة للجفاف باستخدام مياه البحر بعد تحليتها.

وعلّقت وكالة الأنباء الغانية أن زراعة الأرز في الصحراء كانت على الدوام «تحديا صعبا»، فعوامل المناخ من طقس متطرف، ونقص في إمدادات المياه العذبة، ومشاكل التربة التي تقيّد تطوير هذه التكنولوجيا، لكن فريق العلماء الصيني استطاع تحقيق ذلك والتوصل إلى الحل المناسب.

تطوّر المملكة الوسطى ومحو الفقر

وعبّر خوسيه لويس برنال سفير المكسيك لدى الصين، عن رؤيته حول سياسات الإصلاح والانفتاح التي انتهجتها الصين قائلا: «إن عملية التنمية في الصين جزء من قصة نجاح أكبر شهدت خلالها منطقة شمال شرق آسيا تطورا سريعا على مدى السنوات الأربعين الماضية، ففي البداية كانت كوريا الجنوبية والآن الصين، وقد تعلم قادة أمريكا اللاتينية ورجال أعمالها الكثير من قصة صعود الصين».

ويرى برنال أنه منذ أواخر السبعينيات، حققت الصين نتائج رائعة من خلال سياسة الإصلاح والانفتاح التي أطلقها الزعيم الصيني الراحل دنغ شياو بينغ، ويمكن إثبات ذلك من الأرقام المتعلقة بمعدل النمو الاقتصادي في الصين وناتجها المحلي الإجمالي المثير للإعجاب، إضافة إلى انتشال نحو ٨٠٠ مليون شخص من براثن الفقر، هو أمر غير مسبوق في العالم.

وخلال مقابلة حصرية مع غلوبال تايمز قال سفير بابوا غينيا الجديدة لدى الصين كريستوفر ميرلوت «الأخبار الإيجابية القادمة من منطقة المحيط الهادئ ترجع في المقام الأول إلى دور الصين الرائد في المنطقة». وأوضح أنه منذ اقتراح مبادرة «الحزام والطريق» التي أطلقها الرئيس الصيني شي جين بينغ، بدأ وضع الصين كقائد عالمي يتشكل ببطء؛ إذ إن نفوذ هذا البلد الآسيوي لا يتعزّز في منطقة جنوب المحيط الهادئ فحسب، ولكن الشيء نفسه يحدث في إفريقيا وجنوب آسيا وجنوب شرق آسيا ومناطق أخرى حول العالم. وباعتبارها ثاني أكبر اقتصاد في العالم، فقد تحولت مكانة الصين كقائد عالمي من النظرية إلى الواقع.

وحول تقييم حضور الصين في بابوا غينيا الجديدة ودول جزر المحيط الهادئ، والذي وصفته وسائل إعلام غربية بـ«الغزو الناعم»، أشار ميرلوت إلى أنه بعد الزيارة التاريخية التي أجراها الرئيس شي جين بينغ للدولة الواقعة جنوب المحيط الهادئ لأول مرة في عام ٢٠١٤، وإعلانه عن سياسة جديدة تجاه المنطقة، زادت المساعدات الاقتصادية التي تقدمها الصين بصورة ملحوظة، خاصة في مجال البنية التحتية.

وفي الوقت الراهن، هناك ما يقرب من ٣،٥٠٠ شركة صينية تعمل في بابوا غينيا الجديدة، بين شركات صغيرة ومتناهية الصغر وأخرى كبيرة متعددة الجنسيات. ومن بين تلك الشركات الكبيرة متعددة الجنسيات، نفذت ٢١ منها العديد من المشاريع الكبرى من بناء طرق ومد سكك حديدية على مدى السنوات الأخيرة. ويرى ميرلوت أن مساعدة الصين لبلاده شيء جيد للغاية، وهو أكثر ما تحتاج إليه.

وفي إطار «منتدى التعاون الاقتصادي والتنمية بين الصين ودول المحيط الهادئ»، قدم بنك التصدير والاستيراد الصيني وبنك التنمية الصيني ما مجموعه ٢ مليار دولار أمريكي في

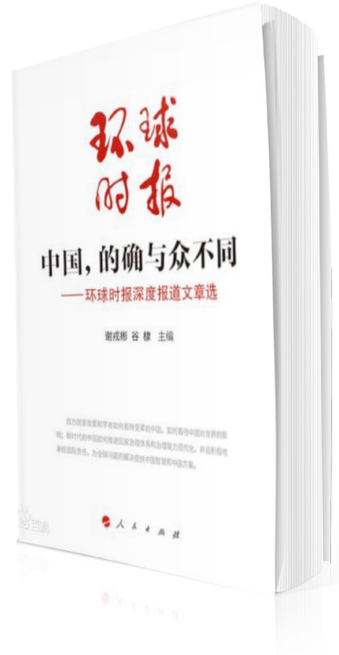

صورة قروض ميسّرة إلى دول جزر المحيط الهادئ الجنوبية لدعم مشاريع البنية التحتية الأساسية. وباعتبارها أكبر دولة من حيث عدد السكان والأكبر بين جزر جنوب المحيط الهادئ، أمكن لبابوا غينيا الجديدة الاستفادة منها كثيرا وتحسين مستويات معيشة شعبها. وذلك في وقت تتجه فيه حليفة البلاد التقليدية «الولايات المتحدة» إلى العزلة والحمائية، ما جعل دول جنوب المحيط الهادئ قلقة للغاية، وبالتالي فإنها تتقرب أكثر من أي وقت مضى إلى الصين.

ومن ضمن المسائل التي تدفع لشعور تدلك الدول بالقلق، فإن بابوا غينيا الجديدة كدولة جزرية، معرّضة لارتفاع مستوى سطح البحر وتغير المناخ، لكن الولايات المتحدة أعلنت انسحابها من اتفاقية باريس للمناخ. وفي المقابل، كانت الفلسفة الاقتصادية الزرقاء للصين هي بالضبط نفس مفهوم هذه الدولة لتنمية المحيطات، لذلك أصبحت على استعداد للحفاظ على تعاون أوثق مع الصين.

واشنطن وقبول فكرة صعود الصين

قال العالم الأمريكي الشهير روبرت كوهان إن آليات التعاون الدولية المتعددة الأطراف تعرضت لضغط هائل بسبب تعديل السياسة الأمريكية، معتبرا أن الخيارات السياسية لإدارة ترامب لم تدرك حقيقة أنه على الرغم من اضطراب السياسة الدولية وتفاوت المصالح وحاجة كل دولة للعمل على أساس فهمها الخاص لمصالحها الوطنية، إلا أنه لا تزال الفرص المتاحة أمام الدول للتعاون واسعة النطاق، فالسياسة ليست معادلة صفرية.

وكان هربرت ريموند ماكماستر مساعد شؤون الأمن القومي للرئيس ترامب، وغاري كون مدير المجلس الاقتصادي القومي بالبيت الأبيض، من المسؤولين المحنكين في الحكومة الأمريكية الحالية قد قالا إن هذا العالم «قائم على التنافس، تتصارع فيه أطراف مختلفة على الفوز في مجالات متعددة مثل الاقتصاد والتجارة». إلا أن كوهان يرى أن هذا الرأي خاطئ، لأنه على الرغم من اختلاف القيم الواضح جدا في عالم اليوم، إلا أنه «إذا نظرنا إلى أية مشكلة من منظور المجتمع العالمي، فسوف نجد أن هناك العديد من الفرص للتعاون بين مختلف الأطراف»، وبالتالي فإن المؤسسات الدولية المتعددة الأطراف ضرورية لمثل هذا التعاون الدولي، فهي تجعل التعاون أكثر سهولة، وتجعل الالتزامات بالسياسية أكثر مصداقية، كما يمكنها مراقبة تنفيذ تلك السياسات. ولسوء الحظ، لم تدرك الحكومة الأمريكية ذلك.

من جانبه، يرى غراهام أليسون صاحب نظرية «فخ ثيوسيديدز» أن الرئيس الأمريكي دونالد ترامب ليس «استثناء» في سياسة الولايات المتحدة تجاه الصين، فبشكل عام يعتبر كل من الديمقراطيين والجمهوريين الصين خصما استراتيجيا. وبين الأوساط الأكاديمية الأمريكية ومراكز الفكر، خاصة أولئك الذين يدرسون حول الصين، يعتقد كثيرون أن الصين خدعتهم على اعتبار أن «الصين ستخضع للنظام الدولي الذي تهيمن عليه الولايات المتحدة». لكن كما هو الحال الآن، فإن الصين تسعى لتحقق أهدافها الخاصة، بما يخالف جميع توقعات الولايات المتحدة.

وفي إحدى المناسبات قال رئيس الوزراء الراحل الأب الروحي لسنغافورة، لي كوان يو، إنه مع تزايد حجم الصين وقوتها، فإنها ستطلب من الجميع القبول بخصوصيتها، ولن تقبل بمجرد أن تصبح عضوا فخريا في «نادي الدول الغربية». فعلى الدوام اعتقد الأمريكيون أن الصين ستتبع نفس نسق اليابان وألمانيا، ومن ثم ستتجه الطبقة الوسطى فيها للمطالبة بحقوق سياسية، وبعد ذلك ستصبح الصين «ديمقراطية على الطريقة الغربية» لتحجز مكانها في النظام الذي تقوده الولايات المتحدة.

وأوضح أليسون أن الصين ستصبح حتما أكبر وأقوى ما لم تنحرف عن مسار التنمية، وبالطبع فإن الولايات المتحدة لن ترضى بهذا الوضع، لأن واشنطن معتادة على دور «القائد». لذلك، سيكون من المؤلم للغاية بالنسبة للولايات المتحدة القبول بفكرة «صعود الصين». لكن الأمريكيين براغماتيون على كل حال، وبالنسبة للصينيين فإنه ليس من الصعب عليهم «الصبر».

وخلاصة القول فإن الصينيين والأمريكيين يحتاجون إلى عمل شاق للتكيف مع الواقع، والتفكير بعمق في كيفية تجنب «فخ الصدام».

- الكتاب: «الصين مختلفة بالتأكيد ـ مختارات من تقارير جلوبال تايمز».
- المؤلف: شيه رونغ بين.
- الناشر: دار نشر الشعب (رينمين)، بالصينية.

* كاتب وباحث مصري

فينومينولوجيا الجسد الكسير
تأليف جماعي

زينب الكلبانية *

الفينومينولوجيا (الظواهرية) فلسفة تعنى بوصف الظواهر، الوصف المجرد من كل هوى مسبق أو معرفة سالفة. ومن بين أهم الظواهر التي اهتمت بها الفينومينولوجيا ظاهرة «الجسد». وجديد هذا الكتاب أنه لا يهتم بالجسد السليم وإنما بالجسد السقيم. وذلك أننا من شأننا ألا ننتبه إلى بعض ظواهر الجسد إلا عندما ينكسر بالمرض أو يعتريه الضعف أو يلم به الألم. ومن هنا جاء تركيز هذا الكتاب على معيش الجسد الكسير.

هذا الكتاب يسلط الضوء على مختلف التحليلات الفينومينولوجية للجسد المعيش - سويته بالقياس إلى عدم سويته - سلامته بالمقارنة مع سقامته، نشاطه بالضد مع خموله، ويضم المشاركون في هذا الكتاب جهود بعضهم إلى بعض لكي يتناولوا الجسد والكسارة في الفلسفة واللاهوت والطب والأدب، ملقين بذلك الضوء على تجربة انعطاب الجسد في الحياة العادية، وكيف أن الفينومينولوجيا تطور تجربة المعيش هذه لتطرح حولها أسئلة تتعلق بإدراك الجسد وبفهم أمره وكنهه.

في البداية سوف نوضح أكثر الظواهرية أو الفينومينولوجيا، إذ هي مدرسة فلسفة تعتمد على الخبرة الحدسية للظواهر كنقطة بداية - أي ما تمثله هذه الظاهرة في خبرتنا الواعية - ثم تنطلق من هذه الخبرة لتحليل الظاهرة وأساس معرفتنا بها. غير أنها لا تدعي التوصل لحقيقة مطلقة مجردة سواء في الميتافيزيقا، أو في العلم؛ بل تراهن على فهم نمط حضور الإنسان في العالم. يمكن أن نرصد بداياتها مع هيغل كما يعتبر مؤسس هذه المدرسة إدموند هوسرل، تلاه في التأثير عليها عدد من الفلاسفة مثل: هايدغر وسارتر وموريس ميرلو بونتي وريكور. وتقوم هذه المدرسة الفلسفية على العلاقة الديالكتية بين الفكرة والواقع. والظواهرية مدرسة فلسفية اجتماعية ترجع أصولها إلى القرن التاسع عشر، ظهرت كرد فعل على المدرسة الوضعية. والمفكرون الفينومينولوجيون ينتقدون الوضعية؛ لأنها تسلم بوجود حقائق موضوعية مستقلة عن الوعي الفردي. وملخص أفكار هذه المدرسة هي أنها تهتم بالوعي الإنساني باعتباره الطريق الموصل إلى فهم الحقائق الاجتماعية، وخاصة بالطريقة التي يفكر بها الإنسان في الخبرة التي يعيشها، أي كيف يشعر الإنسان بوعيه.

يبدأ هذا الكتاب بالحديث عن الضعف والسلبية وظواهر الجسد، بالإشارة إلى كيفية اعتماد هوسرل وميرلو بونتي على النشاط الجسدي كمكون للذاتية وعلاقتنا العالمية، وهي علاقة تم التقاطها بواسطة عبارة «أستطيع». ومع ذلك، فإن هذه الحسابات المثمرة، تأخذ الجسم النشط والفعال بشكل جيد، حيث يواجه المعيار القيود عند مواجهة الجسم المكسور، في حالة المرض أو الضعف أو أشكال أخرى من الاختلالات. يمكن القول إن هناك تحيزا ناشطا مدفونا في هوسرل وميرلو بونتي، مما يمنعهم من إعطاء وصف ظاهري مُرض لـ «لا أستطيع». يقود داهل من وصف القديس بولس لـ «شوكة في الجسد»، يقترح داهل أن هناك إحساسا بقدرة الحياة المستقبلية، والتي تتجلى بعملية بحتة في الحالة السلبية. علاوة على ذلك، يمكن توضيح هذه القوة المستلمة من خلال سرد حياة ميشيل هنري، الذي لا ينكر بأي شكل من الأشكال النشاط البشري - «أستطيع»- ولكن يدعي أن مصدره لا يكمن في الأنا النشطة، ولكن في سلبية راديكالية يجد نفسه يتلقى قوى الحياة.

كما يحاول ستالي فينكي في هذا الكتاب، إظهار الكيفية التي يمكن بها إدخال الظواهر الجسدية لميرلو بونتي، في حوار مثمر مع المفاهيم الحديثة للتحليل النفسي،وللتجربة السريرية. يتم انتقاد فكرة فرويد للرغبة واللاوعي لتجاهله دور الجسم في التحليل. وبالتالي فإن تكامل ميرلوبونتي في التحليل النفسي يقدم إعادة تقييم نقدي للمفاهيم، ومفاهيم التحليل النفسي النموذجية، التي يمكن اعتبارها مساهمات فيما يسمى بالنهج العلائقي للتحليل النفسي. اللاوعي الجسدي لدينا هو مجال التعرض الجسدي للآخرين، وهو أمر يتم سنه في الخبرة السريرية. لا يزال هذا النهج يشدد على أهمية التفسير والتذكر السردي من خلال تصور ذلك على أنه يشكل مساحة مشتركة بين الحداد، وهو أمر حاسم للاعتراف بضعف الفرد وتحقيق الانفصال الفردي.

كما يكشف هذا الكتاب عن التعقيدات والمراجعات التي تجلبها كتابات أميري وفانون، إلى الروايات الظاهرية لموريس ميرلوبونتي عن التجسيد، ونظريات جان بول سارتر، عن الشكل والعنف الاستعماري. من خلال قراءة تأملات أميري جنبا إلى جنب مع كتابات فانون، يقترح ماجوري إطارا نظريا للتفكير في الآثار الظاهرة المزعزعة للعنف على الجسم، والتشريد الوجودي العميق الناتج عن التعذيب، والآثار التي يتركها على الجسم، وغالبا ما يتم تسجيلها كجروح داخلية هشة، يمكن إعادة فتحه عند حدوث صدمات أخرى، أو من خلال إعادة التعذيب النفسي الجسدي. يستخدم ماجوريمصطلح «الإفصاح المؤلم» للإشارة إلى هذه الظواهر الوجودية للتعذيب، والاستيلاء على «التفكك» وإعادة صياغتها، وهو مصطلح يستخدمه ميرلوبونتي، لوصف تفاعل الخصائص المعقولة والعاطفية للجسم. كما يقترح هذا الكتاب أن نقرأ نظرية أميري وفانون للجسم الموضوعي، من خلال العنصرية والتعذيب والعنف الاستعماري، ضد النموذج الظاهري للجسم المرتبط بالتآزر مع بيئته.

يفحص «تأطير التجسيد في الروايات العنيفة» الطرق التي يتم بها تأطير ضعفنا المتجسد المتبادل في أنواع مختلفة من الروايات المكتوبة، التي تصور العنف السياسي. يبدأ تحقيق فالك من الفرضية الظاهرية القائلة بأن الجسم ليس شيئا ولا أداة للتوسط بشفافية للعالم الخارجي إلى الذاتية. وبدلا من ذلك تولد أعمال الوعي من داخل الجسم وداخل تجاربه ويكون الجسد كلغة أولى باستمرار. أيضا، نظرا للدور الأساسي المطلق الذي يلعبه الآخرون في وساطة أجسادنا في العالم، ووساطة أجسادنا بواسطة العالم، لا يمكننا القول إننا نعيش في أجسامنا بشكل مستقل عن الآخرين. بعد مناقشة هاتين المنطقتين بالإشارة إلى ميرلوبونتي، يستكشف فالكي ثلاث روايات عنيفة من حيث تصويرها للتجسيد والعلاقة: مقال من مجلة "Dabiq" من تنظيم الدولة الإسلامية، وهو مصمم لتشجيع العنف، رسالة مارتن لوثر كينغ «رسالة من سجن برمنغهام»، والتي تروج للمقاومة اللاعنفية، ورواية الوكيل السري لجوزيف كونراد. يحلل فالكي الوسائل التي من خلالها تعزز هذه الروايات المختلفة وعي القراء، أو تقتلهم بالضعف والترابط بين الأهداف من خلال تأطيرهم لجثث الجناة والشهود والضحايا.

ويكشف هذا الكتاب عن كيفية ربط المعاناة والتجسيد والصحة الوجودية ببعضها البعض، من خلال تحليل الظواهر. إذ يجب أن تؤخذ جودة السردية الذاتية هنا على النقيض من وجهة نظر ذرية مجزأة للوجود البشري، الذي يوصف حاليا كدواء من خلال الرعاية الصحية البيروقراطية. إن الاعتراف والصبر والسرد كلها بنفس الأهمية في عمل المعاناة، كجزء من تحويل الألم. أحد أوجه القصور في ازدواجية الديكارتي

عندما يتعلق الأمر بالمعاناة، هو أنه يجعل العلاقة بين الجسم في الألم ووعي المعاناة من ذلك الألم خارجيا. إن المعاناة هي كائن ديناميكي في العالم حيث نحقق الصحة من خلال تعلم كيفية المعاناة. إذا كانت المعاناة ليست إحساسا سلبيا، ولكنها في الواقع زراعة نشطة لعلاقة معينة مع تجارب الألم والمصيبة، فإنّ المعاناة هي عمل يهدف إلى الصحة الوجودية وبمعنى ما هو بالفعل هذا النوع من الصحة.

ويستكشف إريكسن بعض جوانب الجسم المكسور،إذ يشير الجسد المكسور إلى التجارب البشرية، والوعي بشيء مختلف عن المعتاد أو غير متوازن أو مزعج. نقطة انطلاقه هي أن تفكيرنا المعتاد حول مثل هذه الأحداث يتأثر بعدم التماثل في العلاقة، بين الكائن والظاهرة. وهذا يعني أن الأوصاف الثابتة، بما في ذلك تلك اللازمة للبحث الطبي، تميل إلى استبدال نقاط الوصول إلى تجربة كونك إنسانا حيا. على الرغم من التقدم والنجاحات التي لا يمكن إنكارها في الطب، يؤكد إريكسن كيف يمكننا الاستفادة من الفلاسفة مثل غابرييل مارسيل ومارتن هايدغر وجان لوك ماريون، في محاولات لاستكشاف هذا التباين وتحديه. وبشكل أكثر تحديدا، يتأمل في ظواهر مثل الانكسار والغموض والتأثير. كمفاهيم، هذه هي علامات ومؤشرات رسمية، هذا يعني أنهم لا ينظّرون أو يشرحون أو يصفون خصائص الكيانات، وإنما يشيرون نحو الحدث ككل.

هناك أيضا عبارة عن استكشاف ظاهري أولي للتعب والإرهاق، والتعب المزمن و«متلازمة التعب المزمن» (CFS). يقع في ثلاثة أقسام. ينظر الأول إلى التعب والإرهاق، والقسم الثاني في التعب والإرهاق المزمن (كما يعاني، من بين أمور أخرى، الأفراد الذين تم تشخيص إصابتهم بـ CFS)، والثالث في CFS كتشخيص طبي حيوي. هناك سؤالان يمكن تمييزهما، ولكنهما مترابطان، يتم تناولهما عبر هذه التحقيقات. أولا، من الغريب إلى حد ما، أن علماء الظواهر لم يولوا سوى القليل من الاهتمام للتجارب اليومية، مثل التعب والإرهاق: كلاهما جزء من التجربة اليومية (في حالة التعب، أكثر أو أقل حرفيا «كل يوم»)، لكنهم يتلقون القليل من الظواهر الواضحة الانتباه على سبيل المثال، الألم. هل يمكن أن يقودنا ذلك إلى الكشف عن أبعاد التجربة التي تم تجاهلها سابقا، وحتى التشكيك في بعض الافتراضات، التي وضعها بعض علماء الظواهر المؤثرة؟ ثانيا، هناك مجال للحوار بين علماء الظواهر من جهة، وأولئك الذين يشاركون في رعاية أو البحث عن الأفراد الذين يعانون من الإرهاق المزمن من جهة أخرى. وما الذي يجب علينا كعلماء الظواهر أن نتعلمه منهم ومن الأفراد الذين يعانون من التعب المزمن أو CFS؟

يتناول المؤلفون أيضا الطرق المختلفة، التي تم من خلالها استكشاف أنواع المعاناة في التقاليد الظاهرية، خاصة من حيث قدرة المعاناة على الكشف عن جوانب التجربة العالمية الطبيعية. يعتمد جيمس ماكجويرك على العمل الذي تم

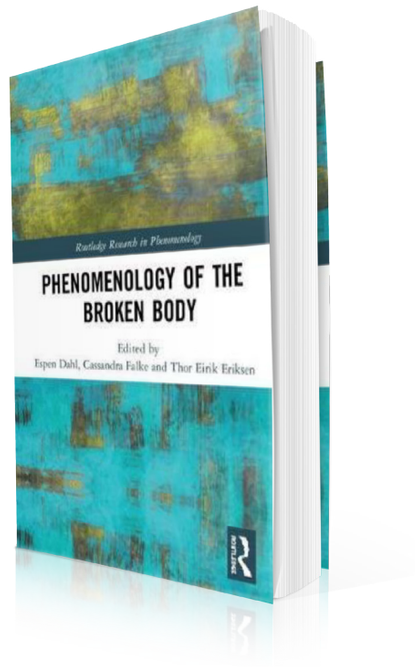

إجراؤه في علم النفس المرضي الظاهر، لإظهار كيف أن الانتباه إلى المعاناة مثمر سريريا ومضيئا فلسفيا، بقدر ما يوضح هذا البحث الانتماء المشترك للمعاناة وفقدان الشعور الطبيعي.

يتحول الانتباه إلى العمل المنجز في ظواهر المرض، التي ترسم صورة أكثر تعقيدا للعلاقة بين المعاناة والحياة الطبيعية من خلال لفت الانتباه إلى إمكانية استعادة الوضع الطبيعي في سياق المعاناة. وكذلك يعتمد ماكجويرك على عمل موريس ميرلو بونتي وكورت جولدشتاين، ليجادل بأن هذين النهجين أكثر اتساقا مما يبدو عليه في البداية،ويعتمد هذا الادعاء على الالتزام في كلا الموقفين بالحياة الطبيعية كفئة تجريبية، بدلا من مجرد فئة لغوية، وفكرة أن إعادة تكوين الطبيعي في المعاناة يحدها جوانب التجسيد التي تكون بلاستيكية فقط بشكل نهائي.

عندما يضرب المرض أو الإصابة الخطيرة، فإن قدراتنا الجسدية وإحساسنا بالهوية قد يواجهان تحديات عميقة. لا يتطلب التعافي علاجا طبيا، وقد يحدث في مواجهة ضعف مستمر، باستخدام قصة وبنية موسيقية، وأمثلة على الأشخاص الذين يتعاملون مع السرطان وأمراض الرئة والنوبات القلبية وبتر السكتة الدماغية، يبحث هذا الكتاب في «الحركات» المختلفة التي تحدث أثناء عملية الفقد والتعافي. يمكن أن يسبب المرض / الإصابة في الشعور «بالاستحالة» - كل الأشياء التي لم يعد بمقدور المرء القيام بها، ومع ذلك، يتضمن التعافي «إعادة امتلاك» عالم المرء بطرق متنوعة، يمكن للمرء أن يكتشف أن هناك طرقا مجسدة لتحقيق أو تكييف أهداف المرء، وأنماط المساعدة التكنولوجية والاجتماعية، التي يمكن الحصول عليها. بالإضافة إلى ذلك، يمكن للمرء أن يستكشف ما أسميه بـ «إمكانية الأنا»- أن هناك مستوى من الوجود -«أنا»- الذي يحمل حدودا تتجاوز حدود الجسد.

قد تُفسّر تجارب السمو دينيا، لكن ليس من الضروري، تفسيرها دينيا فهي تتخذ أشكالا عديدة، بما في ذلك الجوانب الفكرية والاجتماعية والروحية. كما هو مبين في لعب الكلمات اللفظية، فإن هذه الأبعاد الثلاثة (الاستحالة، أنا محتمل وإمكانية «الأنا») ليست مجرد مراحل منفصلة، ولكنها أبعاد متداخلة للتجربة حيث يعيش المرء مع جسم متغير وضعيف.

كما تشرح تاليا ويلش في أحد فصول هذا الكتاب المعنون «حالات الحمل المكسور: المساعدة في تكنولوجيا الإنجاب والزمالة» كيف أن الطبيعة التقدمية للعلوم الطبية في العوالم المتقدمة المعاصرة، جعلت الحمل ليس مجرد تجربة، بل كتجربة محتملة لجميع النساء؛إذ توفر التقنيات المساعدة للحمل أفقا مختلفا للغاية فيما يتعلق بالحمل، وتجعل أجسام العقم لا تبدو مكسورة، بل على أنها مشكلات مؤقتة يمكن حلها بالتدخل الطبي الصحيح. بهذه الطريقة، تعكس حالات الحمل المساعدة تجربتنا المعاصرة في المجال الطبي باعتباره أفقا لانهائيا، يمكن فيه علاج أي مرض في يوم من الأيام. يدرس هذا الفصل التناقض في كيف يمكن لعلاج الانكسار أن يرسخ الانكسار على مستوى أعمق. كلما ساعدت التقنيات، أمكن قراءة كل جزء من تجربتنا على أنها شيء قادر على الاستفادة من المزيد من التدخل الطبي.

وأخيرا في هذا الكتاب، في «جثث الموتى والجثث الميتة: تحليل ظاهري للخرف والغيبوبة وموت الدماغ»، يبحث فريدريك سفينيوس، في الكيفية التي ينبغي أن ننظر بها إلى وفاة الأشخاص وأجسادهم، خاصة في الحالات التي يبدو أنها تنقسم فيها الطرق. يستفيد القارئ من أعمال مارتن هايدغر وهانز جوناس وغيرهم من علماء الظواهر، ليجادلوا بأنه على الرغم من أن الحياة والموت يجب فهمهما على المستوى الجسدي، إلا أن التحليلات الوجودية والأخلاقية للموت، تحتاج إلى استكمالها بظواهر كيف يمكن للأشخاص أن تختفي تدريجيا في قوة تكونت من عمليات جسدية تنهار. في هذا التحليل، تم تقديم مقياس مستمر لمستويات مختلفة من الشخصيات، ومقارنتها ببعض الآراء المؤثرة حول جوهر الإنسان والموت في الطب المعاصر وأخلاقيات علم الأحياء.

- الكتاب: فينومينولوجيا الجسد الكسير
- المؤلف:تأليف جماعي تحت إشراف إيسبن داهن وكاسنرا فالك وطور إريك إريكسن
- دار النشر: راوتليدج
- اللغة: الإنجليزية
- تاريخ النشر: 2019 م

* كاتبة عُمانية

بوتقة الإسلام
جلين وارن باوّرسوك

التجاني بولعوالي *

ما أكثر المؤلفات الغربية التي اشتغلت بتاريخ الإسلام، لاسيما أثناء ظهوره المبكر في مكة منذ بداية نزول الوحي على رسول الإسلام انطلاقا من ٦١٠ ميلادية. حتى أن معظم هذه المؤلفات تكاد تتشابه شكلا ومحتوى، لأنها تتقاطع عموديا في السرد الدياكروني الذي يرصد المراحل ومجريات الأحداث بشكل تسلسلي حرفي، وتتماثل أفقيا من حيث التيمات والوقائع والروايات التي توصّفها أو تحللها. ولعله يصعب على أي باحث يتناول تاريخ الإسلام أن يحيد عن هذا المنهج سواء في تزامنه أو في صيرورته، غير أن ثمة من المقاربات ما يكسر هذه الرتابة عن طريق التسلل إلى سراديب غامضة من التاريخ، التي إما أن الباحثين السابقين لم يفلحوا في الإجابة الشافية عنها، وإما أنهم لم ينتبهوا إليها أثناء عملية البحث والدراسة.

ولعل هذا هو السبب الجوهري الذي دعانا إلى مراجعة كتاب المؤرخ الأمريكي جلين وارن باوّرسوكبوتقة الإسلام، الذي حاول أن يسلط من خلاله الضوء على التاريخ المبكر للإسلام منذ الدعوة النبوية إلى قيام الدولة الأموية، وهو يركز بالدرجة الأولى على الجوانب المبهمة والمستشكلة، لاسيما في علاقة الإسلام بأهل الكتاب من يهود ونصارى اعتمادا على البحث الأركيولوجي في المخطوطات والمنقوشات والنقود والمصادر غير الإسلامية الموازية كاليونانية والسريانية.

فراغ في التوثيق التاريخي

يستهل الباحث كتابه بملاحظة مهمة مؤداها أنه يسود فراغ مزعج في الكثير مما نعرفه عن العرب وعن دينهم الإسلام، على وجه التقريب ما بين ٥٦٠ و٦٦٠ بعد الميلاد. وتشكل هذه المائة عام تحديدا الإطار التاريخي الذي شهد الأحداث البالغة الأهمية التي غيرت مجرى تاريخ الإنسانية. ويظهر أن السنوات التي تقدم وتلخص هذه الحقبة المفصلية التأسيسية في تاريخ الإسلام في غاية الغموض، وتخلق الصعوبة للمؤرخ الذي يسعى إلى صياغة منظور مناسب لهذه الحقبة، التي كانت مسرحا لنزول الوحي على النبي محمد صلى الله عليه وسلم منذ ٦١٠، ثم هجرته إلى المدينة، ثم حروبه ضد المشركين حتى وفاته في ٦٣٢، ثم مرحلة الخلفاء الراشدين الأربعة بشتى إنجازاتها وتقلباتها. ويعتقد الباحث أن الفترتين ما بين ٥٦٠ و٦١٠ وما بين ٦٣٢ و٦٦٠ تبدوان موحلتين (من الوحل) نظرا إلى غياب التوثيق التاريخي الواضح لهما. لذلك، من الصعوبة بمكان تأسيس رؤية جلية ودقيقة حول المجتمع العربي أثناء بداية الدعوة النبوية وقبلها، وهذا ما ينطبق أيضا على مرحلة الخلفاء الراشدين الذين خلفوا النبي قبل تأسيس الدولة الأموية في دمشق.

إن الصفحات الموالية من الكتاب لا تهدف إلى تقديم سردية مغايرة حول صعود الإسلام، بقدرما تحاول استيعاب السياق الذي جعل الإسلام ممكنا في واقع كانت تحكمه الفوضى والتشرذم، ومن ثم الإسهام بشكل مثالي في فهم الكيفية التي تشكل بها الإسلام. وقد تضمن ذلك السياق رغم طبيعته العربية الأصلية شتى التأثيرات الخارجية، التي انعكست على المحيط العربي الذي كان متاخما بمختلف العقائد والثقافات والبلدان،كإثيوبيا وفلسطين وبيزنطة والفرس.

ويسجل الباحث أنه توجد فجوة كبيرة في المصادر التاريخية قبل موت الإمبراطور البيزنطي موريس عام ٦٠٢، وهي المرحلة التي شهدت ولادة محمد. في مقابل ذلك، نملك توثيقا جيدا للمناطق الغربية والغربية الجنوبية من شبه الجزيرة العربية في منتصف القرن السادس، لاسيما خلال المرحلة التي كان يهيمن فيها أبرهة الإثيوبي المسيحي على المنطقة، وقام أثناءها بمحاولة تدمير الكعبة في مكة. لكن المعلومات التاريخية سوف تصبح هزيلة وغير دقيقة بعد المرحلة التي تلت موت أبرهة.

وهذا ما يسري أيضاً على المرحلة التي تلت وفاة النبي محمد، وتعرف بمرحلة الخلفاء الراشدين الأربعة التي اتسمت بعدم الوضوح التاريخي في الكثير من الجوانب، لذلك فهي تحتاج إلى إعادة ترتيب موضوعي لأحداثها المعقدة التي أفضت إلى حربين أهليتين. ربما قد يعني هذا نوعا من التحذير من القبول غير العقلاني للتقاليد التي انبثقت من تلك المرحلة المتأخرة، لكن لا يعني ذلك أنها لا تستحق الاهتمام. وهذا إن دل على شيء، فإنه يدل على أن المؤرخ يجب أن يكون حذرا باستمرار في التعاطي مع تلك الأحداث المفصلية المعقدة، ما يقتضي منه الحفاظ على المصادر الأصلية، وفي الوقت نفسه تجنب تحريفها.

وعلى الإجمال فإن مرحلة الخلفاء الأربعة كانت عاصفة، كما يظهر لنا بوضوح على الأقل من خلال روايات المسلمين الأوائل. إذا كانت حروب الردة قد نشبت مباشرة عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، فإن الفتنة الأولى سوف تدفع تلك المرحلة إلى النفق المسدود، ما ترتب عنه نشوء الدولة الأموية منذ ٦٦١ في دمشق. ومع ذلك، فهناك العديد من الجوانب المبهمة كما يستخلص المؤرخ باوّرسوك. نشير في هذا الصدد إلى الشك الذي يسود حول زمن جمع القرآن الكريم ونشره، إذ تذهب الرواية التقليدية إلى أن الخليفة الثالث عثمان بن عفان هو الذي أشرف على جمع القرآن في نسخته الكاملة المعتمدة اليوم من قبل المسلمين. غير أن هذه الرواية أصبحت اليوم تحت المجهر بعد اكتشاف مخطوطة قديمة على سعف النخيل في صنعاء، وقبل ذلك بكثير تم اكتشاف الآيات القرآنية التي خطت على قبة الصخرة في القدس. وهذه المخطوطات تبدو غير متطابقة مع النسخة الرسمية المعتمدة، التي أشرف على جمعها ونشرها الخليفة الثالث.

مملكة أبرهة العربية

إن الطبيعة العشائرية للعرب كانت تخلق تحديا عويصا للقوى الخارجية الكبرى التي كانت لها مطامع في المجتمع العربي الذي كان يوجد على مرمى حجر من حدودها، وذلك لتعقده الاقتصادي والعسكري والديني. لذلك سعت تلك القوى إلى إرساء تحالفات مع القبائل العربية، كما كان الشأن بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية التي تحالفت مع الغساسنة لإحياء وتفعيل النظام الروماني القديم. وهذا ما يسري أيضا على الإمبراطورية الفارسية التي تحالفت مع المناذرة في الحيرة المتاخمة للحدود الفارسية العربية.

وابتداء من ٥٢٥ سوف يغزو ملك الإمبراطورية الأكسومية الإثيوبية المعروف بكليب حمير في اليمن، ويعمل على إبادة النظام اليهودي الذي سبق له بدوره وأن ألحق مجزرة بنصارى نجران في ٥٢٣. ولا يمكن استيعاب هذا التمدد المسيحي في انفصال عن دور البيزنطيين الذين شجعوا النجاشي على ذلك، رغم أن المسيحية الإثيوبية المونوفيزية ذات الطبيعة الواحدة كانت تختلف جذريا عن الأرثودوكسية المسيحية الخلقيدونية. وقد أدى بلاء الملك كليب في حمير اليمنية إلى القضاء النهائي على اليهودية الحميرية وتعويضها بالنصرانية. وسوف يصبح أبرهة لاحقا حاكماً لحمير، وقد كانت لديه مطامع توسعية نحو أجزاء أخرى من شبه الجزيرة العربية. وبعد أن تمكن أبرهة من ضم مناطق مهمة من اليمن إلى نفوذه سوف يعلن نفسه ملكا عليها، دون نية الانفصال عن إثيوبيا.

وجراء ذلك لم تعد اليهودية دين دولة كما كانت في السابق، بل حلت محلهاالديانة النصرانية التي كانت الأقرب إلى تقاليد الشمال الغربي من المنطقة العربية، لأنها كانت متأثرة بالسريانية. وهذا ما يبدو من خلال مخطوطات أبرهة التي تختلف عن سابقيه من الملوك، حيث تم اقتراض المفاهيم المسيحية من السريانية كالروح والبيت للكنيسة على سبيل المثال لا الحصر. كما أنه تم اقتراض كلمة ekklesia من اليونانية لاسم كنيسة أبراهة في اليمن وهي القليس. ويعتقد الباحث أن تلك الكنيسة شكلت معجزة العرب المسيحيين في ذلك الزمن من خلال معمارها الفخم والمتميز، وقد شيدت بهدف جعلها مركزا دينيا يستقطب الحجاج العرب بدل الكعبة في مكة.لكنه سوف يفشل أثناء محاولته تدمير الكعبة في عام الفيل، ما سوف يعزز مكانة مكة أكثر على مستوى شبه الجزيرة العربية برمتها.

ويشير الباحث إلى أن أبرهة خلف وراءه إرثا من الصراع بين النصارى والمشركين الوثنيين، جراء الاصطدام بين كنيسة القليس في صنعاء والكعبة في مكة. وقد نجح في أن يتوسع إلى وسط وغرب شبه الجزيرة العربية، ويضم إليه قبيلة كندة. بل وقد بلغ بجيشه العرمرم مكة، غير أن طيرا أبابيل حال بشكل خارق دون تحقيق هذا الهدف الذي أصبح بمثابة لغز من ألغاز التاريخ.

وأكثر من ذلك، فإن أفول مملكة أبرهة ترك فراغا سياسيا في المنطقة سوف يعوضه الفرس الذين أحيوا تحالفهم القديم مع اليهود العرب، الذين نجوا من غزو كليب المسيحي، وهذا لم يكن في صالح النصارى. إن هيمنة الفرس على المنطقة سوف تمتد ما بين سقوط النصرانية في ٥٦٠ ومولد النبي العربي في ٥٧٠، وهكذا لم يعد يعول البيزنطيون على مملكة إثيوبيا التي أصبحت ضعيفة، ما جعلهم يعقدون تحالفا سياسيا مع الغساسنة العرب.

إثيوبيا وهجرة المسلمين

عندما ولد محمد في ٥٧٠ كان الفرس الساسنيون يتحكمون في المنطقة العربية التي كان أبرهة يحكمها سابقا كمملكة نصرانية. وقد كان المسيحيون يتعرضون طوال هذه المرحلة الانتقالية، التي تعتبر اليوم الأكثر غموضا في تاريخ العصور القديمة، للتهميش والاضطهاد مقابل تصاعد التعاطف الفارسي مع اليهود. وقد جاء هذا التعاطف نتيجة الدعم الفارسي المبكر لمملكة حمير اليهودية القديمة في صراعها مع النصارى البيزانطيين أو الإثيوبيين.

إن الأقليات اليهودية التي كانت تستقر في يثرب خصوصا، كانت تنظر بشكل إيجابي إلى تأثير النظام (الفارسي) الجديد في شبه الجزيرة العربية. ولعل هذا ما ينطبق على الوثنيين العرب الذين كانوا يرصدون عن كثب أقرانهم الوثنيين الفرس. ولم يكن هؤلاء نشيطين أبدًا في الترويج للزرادشتية، وربما كانوا يدركون أن تنوع الشرك العربي كان من شأنه أن يمنع أي نوع من المقاومة الموحدة، وهكذا عملت قبائل وعشائر وآلهة الجزيرة العربية في هذا الوقت لصالح القوى الخارجية. ولعل هذا التنوع والانقسام على وجه التحديد سوف يشكل لاحقا تهديدًا لدعوة محمد الذي كان يتلقى الوحي من الملك جبرائيل لأول مرة، وسوف يتم تجاوز هذا التهديد في نهاية المطاف أمام قوة الحركة الإسلامية الصاعدة.

وما يسترعي الانتباه أن الباحث يحتفي كثيرا بعلاقة المسلمين الأوائل بالحبشة عامة والنجاشي بوجه خاص، إذ سوف تلي الهجرة الأولى هجرة ثانية للمسلمين إلى إثيوبيا أكبر منها، لكن لا نملك المعلومات الكافية عنها. غير أنه على العموم تجمع الأدبيات التاريخية الإسلامية على قبول مملكة الحبشة للاجئين المسلمين واحتضانهم. كما تشير المصادر إلى أن النجاشي بكى عندما سمع آيات من القرآن الكريم، بل وأن محمدا صلى عليه عندما جاءه خبر موته.

وتجدر الإشارة إلى أن وصول المهاجرين من مكة إلى أكسوم في إثيوبيا كان بعد مدة قصيرةمن احتلال الفرس لمدينة القدس. وتعكس القطع النقدية للنجاشي أنباء هذا الحدث، وأهمية القدس للمسيحيين في جميع أنحاء الإمبراطورية البيزنطية. ثم إن تأثير النصرانية على المهاجرين المسلمين الأوائل انعكس في نظرتهم الإيجابية إلى النجاشيولجوئهم إلى مملكته في إثيوبيا. ويعزو الباحث هذا إلى الهيمنة الطويلة للإثيوبيين تحت زعامة أبرها على شبه الجزيرة العربية، علما بأن الإثيوبيين المسيحيين غزوا شبه الجزيرة العربية في ٥٢٥، حيث قضوا على الحكم الجائر لليهود العرب الذين كانوا يروجون لعقيدتهم التوحيدية الخاصة عن طريق اضطهاد النصارى.

ويعتقد الباحث أن الحالة الدينية في شبه الجزيرة العربية كانت جد معقدة، رغم أن مفهوم الله كان مشتركا بين الجميع؛ يهودا ونصارى ومسلمين ومشركين. وما كان يزيد الطين بلة هو التوظيف السياسي الذي أدى إلى الصراع بين اليهود والنصارى والمسلمين لاحقا رغم اشتراكهم في الأصل التوحيدي الإبراهيمي نفسه. وفي هذا السياق المعقد كان تشكل إثيوبيا البعيدة حلقة وصل مهمة لترسيخ وحدة هذه الأديان.

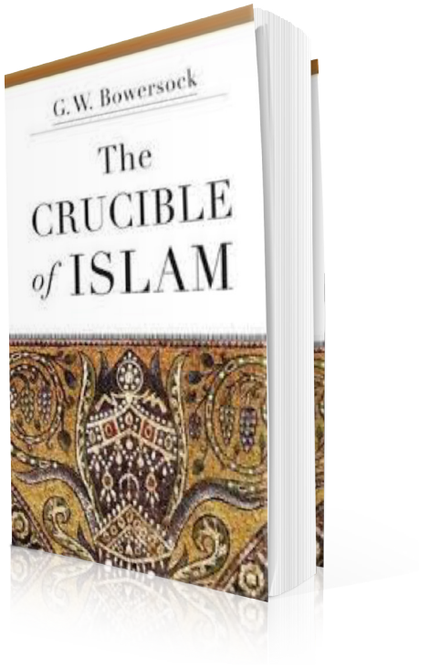

الصراع حول القدس

يذهب الباحث إلى أن الفرسغزوا القدس على يد الملك الساساني خوسرو الثاني في ٦١٤، فقاموا بهدم أسوار المدينة والتنكيل بالسكان أيما تنكيل،فتدمرت المدينة على بكرة أبيها؛ ماديا واقتصاديا وروحيا. وهذا لا ينطبق على المسلمين، الذي أبقوا على طبيعة التعايش بين مختلف مكونات المدينة من يهود ونصارى ووثنيين. وهناك من يشير إلى تواطؤ اليهود مع الفرس في التنكيل بالنصارى.ولعل هذا ما يتضمنه نصان قديمان: أحدهما يتصدره اقتباس من إصحاح دانيال تم العثور عليه ليس ببعيد عن القدس، وهو مكتوب باللغتين الآرامية والعبرية، والنص الثاني تم العثور عليه في منطقة سبأ جنوب شبه الجزيرة العربية. ويشير هذان النصان إلى أن اليهود لم تكن لديهم مشكلة بخصوص وجودهم تحت الغزو الفارسي، بل وكانوا يدعمون الوجود الفارسي في القدس. لكن الباحث يرى أن هذا وحده لا يكفي،لأنه لا توجد أدلة تاريخية أو أركيولوجية تؤكد هذه الفرضية التي تقول بانحياز الفرس إلى اليهود ضد النصارى.

وجراء معركة اليرموك في ٦٣٦ سوف ينهي المسلمون الهيمنة العسكرية البيزنطية على المنطقة. بل وأكثر من ذلك، فإن الباحث يثبت دور البطريك سوفرونيوز في تمهيد الطريق للمسلمين لفتح القدس بشكل سلمي، فهو الذي أقام تحالفا مع الخليفة الثاني عمر بن الخطاب وسلم القدس للعرب. وتتحدث مصادر سريانية من تلك الحقبة التاريخية عن عمر الخليفة بشكل إيجابي، كما يؤكد صاحب الكتاب المؤرخ جلين باوَرسوك.

ويختم الباحث مؤلفه بفصل حول قبة الصخرة التي تناول مختلف جوانبها التاريخية والمعمارية، غير أن جملة من الأسئلة ظلت معلقة. من بينها على سبيل المثال لا الحصر زمن بناء القبة وهل تم ذلك من طرف الأمويين أو العباسيين؟ تأسيسا على البحث الأركيولوجي والتاريخي يظهر أن قبة الصخرة أسست أول مرة من قبل الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان الذي انتهى من بنائها في ٦٩١، غير أن الخليفة العباسي المأمون نسب هذا العمل لنفسه، ويذكر أن أحد العمال غير اسم عبد الملك الخليفة الأموي مؤسس وباني قبة الصخرة أثناء الترميم، ووضع مكانه اسم الخليفة العباسي المأمون، وقد نسي تغيير التاريخ القديم! فضلا عن ذلك، فإن تسامح المسلمين لم يقتصرعلى التعامل السلمي والإيجابي مع البلدان التي تم فتحها، ومنها مدينة القدس وفلسطين، بل تجاوز الأمر ذلك إلى تبني جملة من الأعراف والأشكال الثقافية التي لم يكن لها تأثير سلبي على العقيدة الإسلامية، فاستعملت العربية بجانب اليونانية إلى عهد عمر بن العاص، واعتمدت نقود مسكوكة باللغتين اليونانية والعربية إلى ما بعد زمن معاوية. وما أحوجنا اليوم إلى استلهام ذلك التعايش الإيجابي الذي كان يعرب عنه أجدادنا الأوائل حتى في زمن الحرب والصراع.

مدينة للجميع

وفيما يتعلق بمرحلة المدينة يطرح الباحث سؤالا من الأهمية بمكان فحواه: كيف تمكن محمد النبي من أن يقنع مختلف مكونات المدينة المتنافرة والمتصارعة لعقد تحالف داخلي على أساس التعايش والتعاون في إطار الأمة الجامعة؟ وهذا يعني تحقيق الاندماج بين اليهود الموحدين والخزرج والأوس الوثنيين ومسلمي مكة المهاجرين. وقد ترجم هذا الاندماج، الذي كان مستبعدا أمام الإرث التاريخي الموسوم بالصراع والقتال، على أرض الواقع دون أي مقاومة أو رفض. بل وعلى أساس ما هو رسمي، فيما يعرف بوثيقة المدينة التي حددت حقوق وواجبات كل طرف.

وإذا كان توحيد المدينة قد تم بشكل عجيب وغير متوقع، لتصبح عاصمة الدولة الإسلامية الفتية، فإن المسلمين، كما يستخلص الباحث، فشلوا في أن يجعلوا من مكة عاصمة سياسية وإدارية لهم رغم محاولات بعض الدول والسياسيين. عندما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يثرب وغير اسمها إلى المدينة، أي مدينة الإسلام، شكل ذلك القرار خطوة حاسمة في تعزيز الإيمان الجديد. وسوف ينحسر تأثير مكة منذ تلك اللحظة فصاعدا؛ مكة التي كانت قد اكتسبت شهرة بارزة لم تدم طويلا أمام صعود الإسلام خارجها. ثم إن محاولة ترقية مكة إلى عاصمة الإسلام في منتصف القرن السابع الميلادي أثناء مرحلة حكم الخلفاء الراشدين لم تنجح. وهذا ما تكرر مع دعوة ابن الزبير التي باءت بالفشل. وهكذا عادت مكة إلى ما كانت عليه في الماضي، إلى مجرد مزار مقدس للحجاج. وبمجيء الأمويين سوف تتمركز إدارة الدولة الإسلامية في دمشق بعيدا عن مكة.

ولم يكتف النبي محمد بتبليغ رسالته والسهر على مجتمع المدينة المصغر، بل كان مثل غيره من الزعماء الكبار والأنبياء يهيء المجتمع المسلم، ويقوده إلى اللحظة التي سوف لن يكون حاضرا فيها، وسوف يصبح مجرد مثال من التاريخ يستلهمه المؤمنون في مسارهم الإيماني والتعبدي والقيادي. وبعد حوالي ثلاثة عقود من استلهام الأنموذج النبوي من قبل الخلفاء الأربعة سوف تقترب اللحظة الخطيرة التي صار فيها المجتمع الإسلامي على محك الفتن والحروب الأهلية، لتؤول الأمور في آخر المطاف إلى الدولة الأموية منذ ٦٦١ في دمشق. وتعتبر تلك العقود الثلاثة المرحلة الجوهرية في تشكيل الإسلام كما نعرفه. وقد أفضى ذلك أيضا إلى نوع من اللا يقين بخصوص مستقبل رسالة الرسول.

- الكتاب: بوتقة الإسلام
- المؤلف: جلين وارن باوّرسوك
- الناشر: جامعة هارفرد، الولايات المتحدة الأمريكية
- تاريخ النشر: 2019، باللغة الإنجليزية
- عدد الصفحات: 240

* باحث مغربي مقيم في بلجيكا

إصدارات عالمية جديدة

آخر الإصدارات باللغة الإنجليزية (محمد الشيخ)

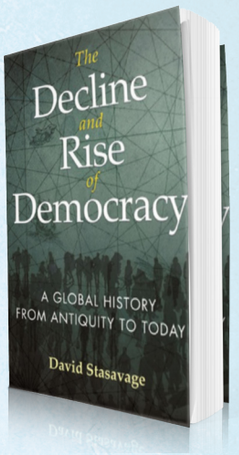

الكتاب: أفول الديمقراطية وبزوغها (تاريخ شامل من العصر القديم إلى اليوم)

المؤلف: دافيد ستاسفيج

دار النشر: مطابع جامعة برينستون

سنة النشر: 2020

هذا كتاب جامع في شأن الديمقراطية يتعلق بما مضى وما هو كائن وما هو آت: كيف ظهرت الديمقراطية ولماذا؟ كيف استأنفت الديمقراطية الحديثة نفسها بعد ضمور طويل؟ ما الذي ينتظر الديمقراطية مستقبلا؟ من حسنات هذا الكتاب أنه سعى إلى الخروج من المركزية الغربية، وانفتح على تجارب قديمة من بلاد ما بين الرافدين والأمريكيتين قبل الغزو الأوربي وبعض التجارب الإفريقية قبل الاستعمار الغربي. يستقصي المؤلف أي مكان نشأت فيه بادرة ديمقراطية، ويحاول أن يشرح كيف أينعت ولماذا أفلت. وقد استند في استقصائه هذا إلى المنهج المقارن، فكان أن أجرى مقارنات مفيدة بين الديمقراطية القديمة والحديثة، وكان تساءل عن مستقبل الديمقراطية.

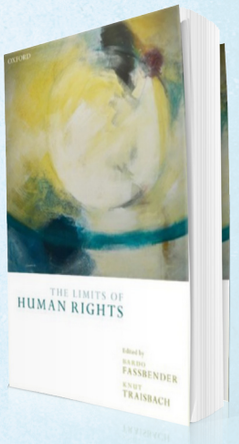

عنوان الكتاب: حدود حقوق الإنسان

اسم المؤلف: كتاب جماعي تحت إشراف كل من باردو فاسبيندر وكنوت ترايسباخ

دار النشر: مطابع جامعة أوكسفورد

سنة النشر: الطبعة الأولى 2019، الطبعة الثانية 2020.

لئن هي كانت الحداثة كما قال أحد المفكرين العرب، على جهة السلب، «تطليق المُطلقات»، فإن هذا يعني،على جهة الإيجاب هذه المرة، أن الحداثة هي الإيمان بنسبية المبادئ. وهكذا، فإنه في زمن «النسبية القيمية» هذا الذي نحن شاهدون عليه، باتت كل المبادئ تقبل المراجعة. ولعل مفهوم «حقوق الإنسان» أحد هذه المبادئ. ذلك أن الحضور الملتبس لحقوق الإنسان في عالم اليوم أثار عدة أصوات ناقدة: هل تحولت يا ترى دعوى «حقوق الإنسان» إلى «أدلوجة»؟ من الناطق باسم هذه الحقوق ومن «المحتكر» لها؟ هل لا زالت للغرب «مهمة تحضيرية» على هذا المستوى؟ من فضائل هذا الكتاب أنه جمع بين تعدد التخصصات التي صبت في بغية واحدة: تحليل خطاب حقوق الإنسان، ونقل مبادئ حقوق الإنسان من «الاستبداد» إلى «الاستشكال». وهو كتاب يبرز الفريق من الباحثين الذي شارك فيه أن مبادئ حقوق الإنسان لا يلزم أن تعتبر بديهية ومنتهية محصورة، وإنما يلزم أن يجادل في أمرها وأن يدافع عنها وأن تعاد صياغتها الإعادة بل الإعادات.

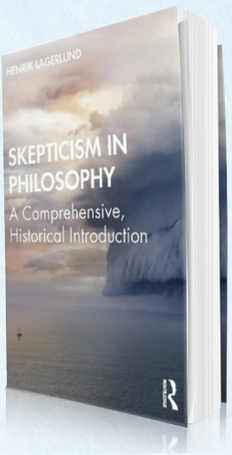

عنوان الكتاب: الشكية في الفلسفة (مدخل تاريخي مستوعب)

اسم المؤلف: هنريكلاجرلوند

دار النشر: راوتليدج

سنة النشر: 2020

يسعى هذا الكتاب إلى أن يكون مدخلا استيعابيا شاملا لمذهب الشكية. وهو يعود إلى جذور الشكية في الفكر الهلينستي القديم عند بيرون وتلامذته من الشكاك إلى الأكاديمية الشكية في روما، فإلى النزعة الشكية في الفلسفة اليوم. من مزايا هذا الكتاب أن يذكره الفكر الشكي العربي الذي لطالما أهمل من تواريخ المذاهب الفلسفية. والحقيقة أنه لا يكاد يوجد فيلسوف شكي إلا وأحصاه المؤلف عددا (من بيرونوسكستوسأمبريكوس من الأقدمين إلى أوغسطينيوس والغزالي من الوسطويين، فإلى مونتيني وشارون وسنشيز على عتبة الزمن الحديث، فإلى ديكارت وبايل وبيركلي وهيوم وغيرهم من المحدثين، فإلى الشكاك المعاصرين بدءا من مور وفيتجنشتاين وغيرهم...)؛ إذ يأخذنا هذا الكتاب في جولة غريبة لا نشك أبدا في أننا خالطنا فيها أهل الشكوك. وقد نخرج منها معتقدين، كما أن نخرج شاكين ...

آخر الإصدارات في اللغة الإيطالية (عز الدين عناية)

الكتاب:مهمّة فاشلة.. هزيمة الغرب في أفغانستان.

تأليف: غاستونبريتشيا.

الناشر: منشورات إيل المولينو (مدينة بولونيا- إيطاليا) 'باللغة الإيطالية'.

سنة النشر: 2020.

عدد الصفحات:176ص.

في هذا الكتاب النقدي لعملية غزو أفغانستان من قِبل القوات الغربية ونتائجها المروِّعة على البلاد والعباد، بدعوى القضاء على بؤرة الإرهاب الرئيسة في العالم، مراجَعةٌ جادّةٌ. فقد أثبتت تلك الحرب الطويلة، كما أطلق عليها أستاذ التاريخ العسكري غاستونبريتشيا فشلها. تبخّرت نوايا الغرب في خلْق أفغانستان موالية للسياسات الغربية ومندمجة في النظام الاقتصادي العالمي. فالغرب بصدد إخلاء المكان لخصومه الذين حشدَ الحشود لمحاربتهم ورضي بالتفاوض معهم على مستقبل البلد، متسائلا الكاتب في خاتمة كتابه: هل الخروج من أفغانستان أحد نُذُر أفول الإمبراطورية الأمريكية؟

إصدارات عالمية جديدة

آخر الإصدارات في اللغة الفرنسية (سعيد بوكرامي)

الكتاب:اليسار الإيطالي واليهود.
تأليف: أليساندراتاركويني.
الناشر: منشورات إيل المولينو (مدينة بولونيا- إيطاليا) 'باللغة الإيطالية'.
سنة النشر: 2020.
عدد الصفحات:309ص.

يعيد هذا الكتاب بناء علاقة اليسار الإيطالي باليهود، منذ العام 1892، تاريخ نشأة الحزب الاشتراكي، مستعرضا مختلف المواقف من اللاسامية والصهيونية وإسرائيل. في مستهلّ الكتاب تحاول المؤلفة أليساندراتاركويني تعريف اليهود في الوعي الاشتراكي، فضلا عن محاولاتها قراءة مفهوم الصهيونية وتجلياتها من منظور اشتراكي، وما لذلك من صلة مع الصراع العربي الإسرائيلي. كما نجد في الكتاب تركيزا على أزمة العلاقة بين الحزب الشيوعي الإيطالي واليهود عبر العديد من المحطات.

الكتاب: تاريخ اللغات والشعوب التي تتكلم بها.
المؤلف: جان سلير
الناشر: دار لاديكوفيرت. فرنسا
سنة النشر: 2020
عدد الصفحات: 720 ص

كيف نحكي قصة اللغات ، منذ ولادة الكتابة حتى يومنا هذا؟ كيف يمكن تفسير هذه الحقيقة الاجتماعية التي تلعب دورًا رئيسيًا في مصير الشعوب جميعها؟ ومعرفة كيفية استيعاب اللغات ، مع حدود يسهل اختراقها ، في حركتها الدائمة وإبداعها ، وهي التي تتصادم أو تتعايش أو تؤثر في بعضها البعض أو تموت أو تعيد إحياء نفسها؟

بالنظر إلى العدد الكبير من اللغات - التي تقدر اليوم بستة آلاف - يركز الكتاب على اللغات التي يمكن سرد تاريخها محددا ثلاث مراحل مرت منها : مرحلة ما قبل الكتابة ، غالبًا ما تكون غامضة، و مرحلة التقاليد الشفوية والكتابة التي تمارسها النخب، ثممرحلة الانتشار الواسع للنصوص المطبوعة عبر وسائل و وسائط متعددة. هذه المراحل ترتبط بخصوصية المناطق ، و تكونت حسب فترات مختلفة.

يتألف الكتاب من وحدات تعتمد على المنطقة ، والعصر و يمتد عبر مسارات مختلفة. وبذلك يتابع القارئ مسار تطور اللغة ، من البداية إلى النهاية ، أو «يدخل» في موضوع يهمه ، أو يوزع قراءته حسب فضوله. الكتاب رحلة معرفية ممتعة في الزمان والمكان تدعونا إلى اكتشاف (العبرية ، العربية ، اليونانية ، اللاتينية ، السنسكريتية ، إلخ) ، أو التعرف على(الجاوية ، الفارسية ، البريتونية ، اليديشية أو السواحيلية أو الكيشوا ... أو البدائل الميلانيزية...)

الكتاب: جعل العالم عزيز المنال
المؤلف: هارتموت روزا
الناشر: دار لاديكوفيرت. فرنسا
سنة النشر: 2020
عدد الصفحات: 144ص

يبدو أن المشروع الثقافي لحداثتنا قد وصل إلى نهايته: العلم والتكنولوجيا والاقتصاد والتنظيم الاجتماعي والسياسي جعلت الناس والأشياء متاحة بشكل دائم وغير محدود. ولكن في حين أن كل التجارب المحتملة وثروات الوجود تكمن في متناول أيدينا ، فإنها تختبئ فجأة عنا وتصير شيئا فشيئا عزيزة المنال. إن العالم ينغلق بشكل غامض. ويصبح غير مقروء ومتكتم. تظهر الكارثة البيئية أن غزو بيئتنا يشكل بيئة معادية. إن ظهور أزمات غير منتظمة يكشف عدم جدوى الرغبة في السيطرة التي تؤدي إلى فوضى واسعة النطاق. وبينما تتحول وعود الوفاء إلى أوامر بالنجاح ورغباتنا إلى دورات لا نهاية لها من الإحباطات ، وبذلك ينفلت التحكم في حيواتنا. في هذا السياق يقترح هارتموت روزا أنه إذا كان الأمر كذلك ، فإن امتلاك طريقتنا الخاصة في التعامل مع الطبيعة والناس والجمال من حولنا يحرمنا من كل تواصل حقيقي،فهذا هو التناقض الأساسي الذي يجب أن نقاومه. و نحلّه ، لا يلزمنا هذا الكتاب باللجوء إلى موقف تأملي ، ولكنه يحفزنا على إعادة اختراع علاقتنا مع العالم، لأن ما نملكه اليوم قد يصير في وقت لاحق متعذر وعزيز المنال بشكل مقلق ومخيف.

الكتاب: إمبراطورية الإشارة من المكتوب إلى الشاشة
المؤلف: بيير أنطوان شاردل
الناشر: دار cnrs. فرنسا
سنة النشر: 2020
عدد الصفحات: 320 ص

إنها الهيمنة الرقمية، فقد أصبحت الشاشات الرقمية ضرورية اليوم بل متاحة، و سريعة، وتستجيب بشكل جيد. لكن وجودها الكلي، واستخدامها المعتاد، لا يسمح، بغض النظر عن مخاطر الإدمان، بتعلم تمييز التحولات التي تحدث في حياتنا.يدعونا هذا الكتاب المهم إلى ترك موقعنا كمستخدم والبحث عن أدوات وآليات لفهم التحول الرقمي في نظريات الكتابة. في الوقت الذي تستحوذ فيه معالجة الإشارات والعقلانية التقنية والتشغيل الآلي على تفاعلاتنا الاجتماعية بشكل متزايد ، وفن القراءة وتفكيك رموز الإشارات ، وعملية امتلاك المعنى ، وتقديم موارد غير متوقعة لمساعدتنا على تطوير فهم السياقات. وبالتالي، فإن بيير أنطوان شاردل الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي المرموق يشكك في شاشاتنا الصغيرة المستعملة في الحياة اليومية باعتبارها تجارب وجودية في حد ذاتها ، مما يستدعي وضعها على محك التفسير، لمعرفة مدى تأثيرها على مستقبل مجتمعاتنا الديمقراطية. ما دام هناك وقت للتدخل في تطور مجتمعاتنا شديدة الترابط الرقمي من خلال تعزيز نمو الموضوعات الإبداعية ، التي ما يزال يتعين علينا كتابة مستقبلها ، خارج إمبراطورية الإشارة المتنامية بشكل متسارع ومثير مع انتشار الجيل الخامس منها.

تصفّح النسخة الرقمية

مجلة التفاهم

عنوان العدد: الفرد والجماعة ومشكلات الاختلال العالمي

عبدالرحمن السالمي

المحاور

- **الإنسان والكون والاستخلاف في القرآن الكريم نحو رؤية إسلاميّة متوازنة**
  عبد المالك أشهبون
- **الرُّؤَى اليونانيّة للعالم ومنزلة الإنسان**
  عبد الرزاق بلعقروز
- **الإتيقي والسياسي في الفلسفة اليونانيّة**
  معز مديوني
- **حالة الأزمة في العالم المعاصر وإلى أين يتّجه العالم والإنسان؟**
  فتحي المسكيني
- **الإنسان والعالم: تصوّرات الفلاسفة المعاصرين (مارتن هايدغر، غونتر أندرز، بيتر سلوتردايك)** - محمد الشيخ
- **نظريّات التنمية وأسباب التأزّم: دراسة نقديّة**
  عبد السلام نوير
- **إشكاليّات الدِّين والعلمانيّة والدولة المعاصرة في ضوءٍ جديد**
  رضوان السيد
- **ما بين الهويّة والشّعبويّة: جدل الهبوط والصعود في قيم الانتماء في العالم المعاصر** - أحمد زايد
- **الدولة - الأُمّة؛ قضاياها وتحوّلاتها المعاصرة**
  محمد نور الدين أفاية

آفـاق

- **المؤتلف الإنساني ونقد سياسات الهويّة**
  طارق متري
- **إسهام لاهوت الأديان في بناء المؤتلف الإنساني**
  عز الدين عناية
- **المؤتلف الإنساني: رؤية كونيّة**
  محمد الشيخ
- **القيمة والحق وتداوليّة المؤتلف الإنساني**
  رضوان السيد

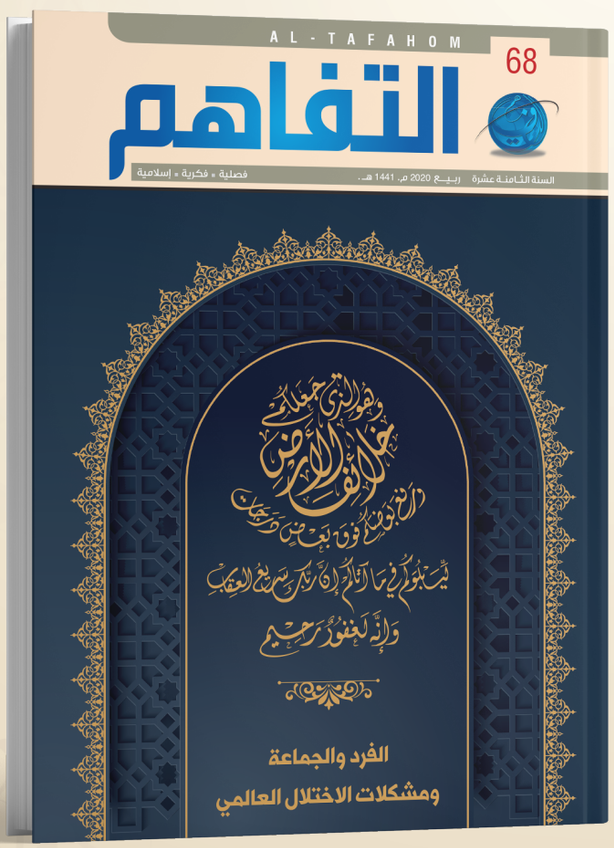

دراسـات

- **المعرفة والتُّراث العلمي في الإسلام ما قبل الحديث: إرثٌ فركيٌّ في مجال التقاطع بين التعليم والدِّين** - سيباستيان غونتر
- **مسألة العدالة عند الفارابي وأبي الوليد بن رشد: دور النفس في القول الفلسفي العدْل** - يوسف بن عدي

وجهات نظر

- **مقد الإغاثة في الإسلام: نظرةٌ في المقوِّمات والأُسس** - محمد المنتار
- **العلمانيّة: مخاض التاريخ ورؤى الحاضر والمستقبل** - برّاق زكريّا

النصوص المنشورة تعبر عن وجهات نظر كتابها ولا تعكس بالضرورة رأي مجلة التفاهم أو الجهة التي تصدر عنها

مجلة التفاهم هاتف : 24644031 – 24644032 968+ , فاكس : 24605799 968+

البريد الإلكتروني : www.altafahom.net – al.tafahoom@gmail.com – tasamoh@gmail.com